شاندور ماراي

اللقاء الأخير

رواية

ترجمة : د. عبدو زغبور

دار التكوين

عنوان الكتاب باللغة الإسبانية:

Sándor Márai
El Último encuentro

تُرجم هذا الكتاب إلى الإسبانية
بالتعاون مع مؤسسة الكتاب الهنغاري

1

قضى الجنرال كل فترة الصباح تقريباً في معصرة العنب. خرج منذ الفجر إلى حقل الكرمة مع الناطور ليرى ما يجب فعله حيال برميلين من النبيذ اللذين بدءا بالتخمر. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة حين فرغا من تعبئة النبيذ؛ حيث عاد بعدئذ إلى البيت. كان ينتظره تحت أعمدة الرواق ذي الحجارة الرطبة التي تفوح منها رائحة العفن، الصيّاد كي يسلّم سيّده رسالة وصلت للتو.

- ماذا تريد؟ـ سأله، وتوقف منزعجاً. أمال قبعة القش ذات الحواف العريضة إلى الخلف والتي تغطي كل جبهته وتظلل وجهه المشوب بالحمرة. منذ سنوات لم يقرأ أو يفضّ أي رسالة. كان يفتح بريده، يتفحصه ويصنفه أحد خدمه موضع الثقة عنده في مكتب المدير.

- لقد أحضرها للتو ساعي البريد ـ قال الصياد الذي مكث في حالة تأهب في الرواق.

تعرّف على الخط، أخذ الرسالة ووضعها في جيبه. دخل الردهة الباردة وقد ناول الصياد قبعته وعصاه دون أن ينبس بكلمة. أخرج نظارته من الجيب حيث يحتفظ كذلك بسيجاره، اقترب من النافذة وشرع بقراءة الرسالة في الظل الذي يخترقه بعض الشعاع المتسرب من فتحات الستائر نصف المغلقة.

- انتظر!ـ قال للصياد بازدراء، الذي تأهب للانسحاب حاملاً القبعة والعصا.

ثنى الرسالة ووضعها في جيبه.

- فليهيئ "كالمان" العربة للساعة السادسة. عربة الخيل المسقوفة، لأنها ستمطر. وليرتدِ البزة الرسمية. أنت أيضاً ـ أضاف بحزم، وكأن ثمّت أمر أغضبه ـ وليكن كل شيء نظيفاً ولامعاً. فلتبدؤوا من الآن في تنظيف العربة وعدة الحصان. ارتد البزة الرسمية، مفهوم؟ واجلس إلى جانب كالمان في مقعد الحوذي.

- فهمت، يا صاحب السعادة ـ أجاب الصياد محدقاً في عيني سيده ـ في السادسة تماماً.

- ستذهبان في الساعة السادسة والنصف ـ قال محركاً شفتيه بعد ذلك بصمت وكأنه يقوم بالعد ـ ستقصدان فندق "النسر الأبيض". عليك القول بأني أنا من أرسلك وأن العربة تحت تصرف الرائد. كرر ذلك.

كرر الصياد التعليمات. رفع الجنرال بعد ذلك يده ونظر إلى السقف وكأنه أراد أن يضيف شيئاً. لم يقل شيئاً وصعد إلى الطابق الأول. راقبه الصياد وهو في وضعية استعداد بعينين زجاجيتين، تابعه بالنظر منتظراً توارِي الهيئة المربعة الشكل وعريضة المنكبين خلف انعطافة الدرج الحجري الذي يقود إلى الطابق الأول.

دخل الجنرال غرفته، غسل يديه واقترب من المكتب المرتفع والضيّق والمغطى بالقماش الأخضر والذي تنتشر عليه بقع من الحبر، حيث حاملة الأقلام والمحبرة ودفاتر ذات أغلفة من القماش المشمع كالتي يستخدمها التلاميذ لإنجاز واجباتهم، كل ذلك يحتفظ به بترتيب ميليمتري. ثمّت مصباح في وسط المكتب له إطار أخضر، أشعله لأن الغرفة كانت معتمة. خلف الستائر نصف المفتوحة كان الصيف قد أحرق الحديقة الممتلئة بالنباتات اليابسة والأوراق المجعدة لكأن مهووساً بإشعال الحرائق تملّكه الحنق فأحرق كل ما هو أخضر قبل أن يتوارى. أخرج

الجنرال الرسالة من جيبه، سوّى الورقة بحذر شديد، وضع نظارته وعاد لقراءة الجمل القصيرة والمستقيمة المكتوبة بخط رفيع على ضوء المصباح الساطع. كانت يداه معقودتان إلى الخلف بينما يقرأ.

على أحد الجدران عُلّقت روزنامة ذات أرقام هائلة. الرابع عشر من آب. أمال الجنرال رأسه إلى الخلف وهو يعدّ. الرابع عشر من آب. الثاني من حزيران. عدّ الزمن المنصرم بين تاريخ قديم وتاريخ ذلك اليوم. واحد وأربعون عاماً، قال بصوت مرتفع. منذ مدة وهو يتكلم بصوت مرتفع، مع أنه وحده في الغرفة. أربعون عاماً، كرر بعد ذلك، مرتبكاً قليلاً واحمرّ كتلميذ تورط بأصعب الواجبات، أعاد رأسه إلى الخلف وأغلق عينيه المبللتين. من فوق السترة الصفراء كالذرة برزت رقبته المنتفخة والحمراء. الثاني من حزيران من عام 1899، تاريخ رحلة الصيد تلك، غمغم. ثم لبث صامتاً. استند بكوعيه على المكتب قلقاً كتلميذ مجتهد، عاد لينظر إلى نص الرسالة، إلى تلك الخطوط القليلة. واحد وأربعون عاماً، قال في النهاية بصوت أجش. وثلاثة وأربعون يوماً. هذه هي المدة.

بعدئذٍ، وكأنه أصبح أكثر هدوءاً، قام ببعض الخطوات في أرجاء الغرفة. في الوسط عمود يسند السقف المقوّس. قديماً كان هنا غرفتان: غرفة نوم وأخرى للملابس. أمر منذ سنوات عديدة - لم يعد يحسب سوى بالعقود، لا تعجبه الأرقام الدقيقة وكأن كل التواريخ تذكره بشيء يفضّل نسيانه - بهدم الجدار الذي يفصل الغرفتين. ترك العمود فقط الذي يسند القنطرة في الوسط كما هو. تمّ بناء البيت منذ مئتي عام خلت من قِبَلِ متعهد مؤن عسكري كان يزوّد خيالة الجيش النمساوي بالشعير أو الشوفان والذي أصبح فيما بعد دوقاً. حينئذ أمر الدوق

بتشييد المنزل. لقد ولد الجنرال في هذا البيت وفي تلك الغرفة وهي الأكثر عتمة بين الغرفتين، تطل نوافذها على الحديقة والبستان وعلى أبنية المزرعة، كانت آنذاك غرفة والدته، والأكثر إضاءة وبهجة كانت تستخدم كغرفة للملابس. منذ عقود، حين انتقل إلى هذا الجناح من البناء أمر بهدم الحاجز الوسطي وحوّل الغرفتين إلى غرفة واحدة، أوسع وتسود فيها الظلال. سبع عشرة خطوة تفصل بين الباب والسرير. ثماني عشرة خطوة بين جدار الحديقة والشرفة. لقد عدّها مرات عديدة، ويعرف ذلك بدقة ويقين.

عاش في تلك الغرفة متكيّفاً مع أحجام الأمراض التي كانت تتربّص به. كانت وكأنها صنعت على مقاسه. سنوات طويلة مضت دون أن يحاول الانتقال إلى القسم الآخر من البناء، المكوّن من صالونات متعددة الألوان، خضراء، زرقاء، وحمراء مع ثريات مذهبة في السقف. تطل النوافذ هناك على الحديقة وعلى أشجار الكستناء التي تتبثق خلف زجاج النوافذ والأبواب وترتفع شامخة على شكل أنصاف دوائر أمام الشرفات الحجرية للجناح الجنوبي للمنزل، حاملة في الربيع زهورها الوردية وأوراقها الخضراء الغامقة. تسند بعض التماثيل للملائكة الصغيرة البدينة من الحجارة درابزين الشرفات. كان الجنرال يقضي الأصباح في معصرة العنب أو في الغابة، وكان يقترب يومياً من الجدول الممتلئ بسمك "الترويت"، حتى في الأصباح الماطرة والباردة في الشتاء. بعد ذلك، حين يعود إلى البيت، يصعد من الرواق إلى غرفة نومه، حيث يقدمون له الطعام.

- لقد عاد إذن - قال بصوت مرتفع - بعد واحد وأربعين عاماً. وثلاثة وأربعون يوماً.

ترنّح فجأة وكأن لفظ تلك الكلمات أرهقه، وكأنه أدرك فجأة كم هي كثيرة، واحد وأربعون عاماً وثلاثة وأربعون يوماً. جلس على إحدى الكراسي المتخلعة والمنجدة بالجلد. على الطاولة الصغيرة ثمّت جرس من الفضة في متناول يده: حرّكه.

فلتصعد نيني ـ قال للخادم، ثم أضاف بأدب ـ من فضلها.

لم يتحرك، مكث جالساً والجرس الفضي في يده إلى أن وصلت نيني.

2

تبلغ نيني الواحدة والتسعين من العمر، مع ذلك سرعان ماوصلت. لقد ترعرع الجنرال على يديها في تلك الغرفة بالذات. كانت حاضرة أثناء ولادته. كانت تبلغ آنذاك ستة عشر عاماً وكانت فائقة الجمال. قصيرة، لكنها على درجة من القوة والهدوء وكأن جسدها يعرف كل الأسرار. وكأنها تخبئ شيئاً في عظامها، في لحمها، أسرار الزمن أو الحياة، شيء لا يمكن قوله للآخرين، شيء لا يمكن ترجمته إلى أي لغة، سر لا تستطيع الكلمات التعبير عنه. كانت ابنة ساعي بريد القرية؛ وضعت طفلاً وهي في السادسة عشرة من عمرها ولم تبح لأحد عن هوية والد الطفل. أرضعت الجنرال لأنه كان لديها ما يفيض من الحليب. كانت قد وصلت إلى المنزل بعد أن طردها والدها من البيت. لم يكن معها شيء سوى ما ترتديه وخصلة شعر من ابنها الميت التي احتفظت بها في مغلف. هكذا جاءت إلى المنزل وفي لحظة الطلق. جرعة الحليب الأولى التي تناولها الجنرال كانت من ثديي نيني.

هكذا عاشت في المنزل دون أن تتفوه بكلمة خلال خمسة وسبعين عاماً. كانت دائمة الابتسامة. اسمها كان يطير بين الغرف وكأن قاطني المنزل يريدون لفت انتباه الآخرين، إبلاغهم أمراً ما. أن يقولوا "نيني" فحسب، وكأنهم يقولون: "يا للغرابة، أ يوجد شيء آخر في العالم سوى الأنانية، الغرور والشغف. لكنهم يقولون: نعم، توجد نيني..." بما أنها كانت دائماً هناك حيث يحتاجونها، لذا لم تك تُلحظ في أي مكان. ولأنها كانت مبتهجة دائماً، لذا لم تُسأل قط كيف تستطيع أن تكون مسرورة بعد أن تركها الرجل الذي أحبته، بعد أن مات الطفل

الذي امتلأ ثدياها بالحليب لأجله. أرضعت الجنرال وربّته، ومضى على ذلك خمسة وسبعون عاماً.

كانت الشمس تسطع أحياناً على المنزل، على العائلة، وفي تلك المناسبة وفي وسط هذا السطوع الشامل ينتبه الجميع، متفاجئين، بأن نيني تبتسم أيضاً. ماتت الكونتيسة فيما بعد، أم الجنرال، وغسلت نيني جبهتها البيضاء، الباردة، المغطاة بالعرق، بمنشفة مبللة بالخل. فيما بعد نقلوا والد الجنرال على محفة، لأنه وقع عن الحصان: عاش خمس سنوات بعد ذلك. اعتنت به نيني. كانت تقرأ له كتباً بالفرنسية، وبما أنها لا تتكلم تلك اللغة، فإنها كانت تتهجى الكلمات التي لم تك قادرة على لفظها. قرأت كل شيء حرفاً بحرف، ببطء شديد، كلمة بعد كلمة. المريض كان يفهمها في كل الأحوال. بعد ذلك تزوج الجنرال، وحين عاد مع زوجته من شهر العسل كانت نيني تنتظرهما على عتبة المنزل. قبّلت يد السيدة الجديدة وقدمت لها باقة من الورد. في تلك اللحظة كانت تبتسم أيضاً، الجنرال يتذكر أحياناً تلك اللحظة. فيما بعد، بعد عشرين عاماً، ماتت السيدة. واهتمت نيني بقبرها وثيابها.

لم يكن لها صفة أو مرتبة في المنزل. كان لها قوتها فحسب والتي كان يشعر بها الجميع بالقدر ذاته. الجنرال فحسب كان يذكر في لحظة شرودها بأن نيني بلغت التسعين ونيّفاً من العمر. ما من أحد أتى على ذكر هذه الحقيقة. قوتها كانت تملأ المنزل، الأشخاص، تعبر الجدران والأشياء كتيار سرّي: كانت مثل الخيوط اللامرئية التي تحرك دمى مسرح العرائس المتجول، مثل الخيوط التي تحرك "خوانيتو والأوغرو". يبدو لهم أحياناً بأن المنزل سينهار مع كل أثاثه لولا قوة نيني التي تحافظ على وحدة كل شيء؛ كان سيقع حطاماً مثل سقوط جدران قديمة عند لمسها. وحين ماتت زوجته غادر الجنرال في رحلة. عاد

بعد عام، وانتقل مباشرة إلى أقدم جناح في المنزل، إلى الغرفة التي كانت لوالدته. أغلق الجناح الجديد حيث كان يعيش مع زوجته.

هناك ظلت الصالونات المتعددة الألوان بجدرانها المغلفة بالحرير الفرنسي الذي بدأ بالتمزق، الصالون الفسيح مع "التشيميني" والكتب، الدرج المزين بقرون الأيائل ورؤوس الظباء وديوك الخلنج المحنطة، صالة الطعام الواسعة التي تطل نوافذها على الوادي وعلى المدينة الصغيرة، على الجبال البعيدة بقممها المائلة إلى الزرقة، وعلى غرفة زوجته وغرفة نومه المجاورة لها. منذ اثنين وثلاثين عاماً، بعد وفاة زوجته ومنذ عودته من خارج البلاد لم يدخل تلك الصالونات والغرف سوى نيني والخدم حين يقومون بأعمال التنظيف كل شهرين.

- اجلسي يا نيني.

جلست المرضعة. لقد شاخت خلال تلك السنة. حين يتخطى الناس التسعين فإنهم يشيخون على نحو مختلف عن الذين في سن الخمسين أو الستين. يشيخون دون استياء. وجه نيني ممتلئ بالتجاعيد ووردي اللون: شاخت مثل الجدران الأكثر نبلاً، مثل حرير ناعم وقديم منسوج من قِبَل عائلة من العمال اليدويين البارعين الذين وضعوا كل أحلامهم في تلك القطعة من الحرير. خلال العام الأخير أصيبت إحدى عيني نيني بالغبش. منذ تلك اللحظة أصبحت العين رمادية، بدأت وكأنها مطفأة وحزينة. العين الأخرى ما زالت زرقاء، بلون البحيرات العميقة في الجبال، الزرقة التي تظهر خلال شهر آب. كانت تلك العين تبتسم. نيني تمضي مرتدية اللون الأزرق البحري، كالعادة، تنورة من المخمل الأزرق البحري وبلوزة من اللون ذاته. كانت وكأنها خلال خمسة وسبعين عاماً لم ترتد ثياباً أخرى.

- لقد كتب لي كونراد . قال الجنرال رافعاً الرسالة بيده دون أن يعير أهمية للإشارة، مع الرغبة في إبراز الرسالة . هل تتذكرينه؟

- نعم . أجابت نيني. كانت تتذكر كل شيء.

- إنه هنا في المدينة . قال الجنرال بصوت خفيض جداً، وكأنه يقدم لها خبراً بالغ الأهمية، بالغ السرية . إنه نزيل فندق "النسر الأبيض". سيأتي في المساء، أمرت بتهيئة العربة لإحضاره. سيبقى هنا للعشاء.

- هنا؟ أين؟ ـ سألت نيني برصانة. جالت الغرفة بعينها الزرقاء الحيوية والمبتسمة.

منذ عقدين من الزمن لم يستقبلوا أحداً. كان مدير المزرعة يستقبل الزوار الذين يجيئون بين الحين والآخر ويبقون على الغداء، وممثلي سلطات البلديات المحلية والإقليمية أو مشاركي رحلات الصيد الكبيرة، في كوخ الغابة، حيث كل شيء جاهز: غرف النوم، غرف الاستحمام، المطبخ وصالة الطعام الكبيرة المزينة بأشياء تعبّر عن الصيد، الرواق مفتوح دائماً والطاولات مُعدة. في مناسبات كهذه يترأس الطاولة مدير المزرعة ويدعو الصيادين وممثلي السلطات باسم الجنرال. لم يكن أي من المدعوين يشعر بالسوء، إذ أن الجميع يعلم بأن سيّد البيت يبقى متوارياً عن الأنظار. كان يحضر إلى المنزل الخوري فقط، مرة في العام، في فصل الشتاء، حين يظهر لتسجيل الأحرف الأولى لأسماء مالشور، غاسبر، وبالتزار، بالطبشور في أعلى الباب. الخوري ذاته الذي دفن أموات العائلة. لا أحد غيره، أبداً.

- في الجناح الآخر . أجاب الجنرال رداً على سؤال المرضعة ـ هل هذا ممكن؟

- قمنا بتنظيفه منذ شهر . لاحظت المرضعة . هذا ممكن.

- في الثامنة تماماً. هل هذا ممكن؟ سأل مشاراً قليلاً، كفضول طفل، منحنياً إلى الأمام في كرسيه - في صالة الطعام الكبيرة. الساعة الآن هي الثانية عشرة.

- الثانية عشرة تماماً - قالت المرضعة - سأذهب لأعطي الأمر. وليتركوا النوافذ مفتوحة حتى الساعة السادسة لأجل التهوية، ويضعوا الطاولة بعد ذلك. عقب ذلك تحركت شفتاها دون التفوه بكلمة، وكأنها تقوم بعملية حسابية. حاسبة الوقت الضروري لكل مهمة - نعم - أكدت بعد قليل بصوت هادئ وحازم.

نظر الجنرال إليها، منحنياً إلى الأمام. حياته وحياتها انصرمتا بشكل مواز، مع الحركة البطيئة والمتمايلة للجسدين العجوزين. يعرف كل منهما كل شيء عن الآخر، أكثر ما تعرفه الأم عن ابنها، أكثر مما يعرفه الزوج عن زوجته. إن مشاركة جسديهما وحّدهما بقوة أكبر من أي رابط آخر. ربما كان ذلك بسبب حليب الأم. ربما لأن نيني كانت أول كائن حي رأى الجنرال عند ولادته، في لحظة مجيئه إلى العالم وهو مغطى بالدم والسوائل، كما يولد الطفل عادة. ربما بسبب الخمسة والسبعين عاماً التي قضياها معاً، تحت سقف واحد وهما يتناولان الطعام ذاته ويتنفسان الهواء ذاته: كانا يتشاركان في كل شيء، حتى برائحة عفن البيت، حتى بالأشجار التي نمت أمام النوافذ، كل شيء. وكل هذا لايمكن التعبير عنه بالكلمات. لم يكونا أخوين ولا عاشقين. ثمّت شيء مختلف في كل هذه الأواصر وهما كانا يحسان به على نحو غير واضح المعالم. ثمّت نوع من الأخوة أكثر قوة وأكثر كثافة من الرابط الذي يوحّد التوأمين اللذين يخرجان من ذات الرحم.

الحياة مزجت أيامهما ولياليهما، كل منهما يعرف كل شيء عن جسد الآخر، عن أحلام الآخر.

سألت المرضعة:

- هل تريد أن يكون كل شيء كما كان في السابق؟

- نعم، هذا ما أريد ـ أجاب الجنرال ـ تماماً كما كان في السابق. مثل المرة الأخيرة.

- حسناً ـ أجابت باقتضاب.

اقتربت من الجنرال، انحنت أمامه وقبّلت يده بقوة، يد شائخة، ممتلئة بالنمش الضارب إلى السمرة والمزينة بخاتم.

- عدني بشيء ـ قالت ـ عدني بألا تُثار.

- أعدك ـ أجاب الجنرال بصوت خفيض ومطيع.

3

حتى الساعة الخامسة لم تصدر أي أمارة من غرفته تنم عن الحياة. قرع الجرس بعد ذلك طالباً الخادم ليقول له بأن يحضّر حماماً بارداً. لم يرغب بالطعام فتناول كأس شاي بارد فقط. قضى فترة ما بعد الظهر مستلقياً على الصوفا، في تلك الغرفة المعتمة. خلف الجدران الباردة يتناهى إليه وقع واختمار الصيف. كان يسمع الفوران الحارق للضوء الباهر للبصر، هبات الريح الدافئة بين الأوراق الجافة، ثم أعار انتباهاً لصخب المنزل.

ما أن انتهت مشاعر المفاجأة حتى شعر بالتعب. يقضي المرء الحياة بكاملها وهو يحضّر نفسه لشيء ما. في البداية يتملكه الغضب. بعد ذلك يريد الانتقام. ثم ينتظر.

مضى عليه وقت طويل وهو ينتظر. حتى أنه لم يعد يتذكر اللحظة التي أفسح فيها الغضب ورغبة الانتقام الطريق للانتظار. الزمن يحتفظ بكل شيء، لكن كل شيء يعود باهتاً مثل الصور القديمة المثبتة فوق صفائح معدنية. الضوء ومرور الزمن يمحيان التفاصيل الدقيقة التي تميّز الوجوه المصورة. على المرء النظر إلى الصورة من زوايا مختلفة والبحث عن الضوء المناسب للتعرف على وجه الشخص الذي ظلت ملامحه مثبتة على المرآة الكامدة للصفيحة. بالطريقة ذاتها تتبدد في الزمن كل الذكريات الإنسانية. ثم، في لحظة غير متوقعة يأتينا شعاع من النور فنرى الوجه المنسي ذاته. كان الجنرال يحتفظ بالصور القديمة في دُرج. صورة والده وهو يرتدي البزة العسكرية كرائد في الحرس

الإمبراطوري. شعره متموج كشعر فتاة ويحمل قبعة الحرس الملكي البيضاء على مستوى الصدر بيد مزينة بخاتم مائلاً رأسه باعتزاز وغضب. لم يقل قط أين تملكه الغضب أو لأي سبب. كان بعد عودته من فيينا يكرّس نفسه للصيد. يذهب للصيد في كل أيام العام، وحين لا يجد ما يطارده، في مواسم حظر الصيد، كان يصطاد الثعالب والغربان، وكأنه يرغب بقتل أحد ما، وكأنه يعدّ نفسه يومياً للانتقام. أم الجنرال، الكونتيسة، حظرت على الصيادين دخول المنزل وأمرت بإخفاء كل ما يذكر بالصيد: البنادق، أحزمة الذخيرة، السهام القديمة، رؤوس الطيور المحنطة، قرون الأيائل، كل شيء. حينئذ أمر الرائد في الحرس الإمبراطوري بتشييد كوخ الغابة. جمع هناك كل ما هو ضروري للصيد. وضع جلود الدببة أمام التشيميني، عرض على الجدران البنادق فوق ألواح مغلفة بقماش من الصوف الأبيض ومؤطرة بالخشب الغامق. ثمّت بنادق صيد بلجيكية ونمساوية، سكاكين إنكليزية وأسلحة نارية روسية. كل أنواع الأسلحة ولأي طريقة للصيد. إلى جانب الكوخ كانت تقع حظيرة الكلاب: تحوي قطيعاً من حيوانات الصيد والقنص، جميعها من سلالات أصيلة؛ مربي الطيور والكلاب يعيش في الكوخ ذاته، مع صقوره الثلاثة المدربة. والد الجنرال كان يعيش في الكوخ أيضاً المُستخدم للصيد حصراً. كان يظهر في المنزل في أوقات الطعام فقط. الجدران كانت مغطاة بألوان فاتحة من الحرير الفرنسي: أزرق سماوي، أخضر تفاحي، زهري مع صبغة حمراء خفيفة. كلها قادمة من باريس وجميعها مدعومة بحاشية مذهبة. الكونتيسة شخصياً تختار، سنة بعد سنة، الحرير لأجل الجدران والأثاث، زائرة المعامل والمحال التجارية كل خريف حين تعود

لزيارة بلدها. لم تتخلّ عن زيارة عائلتها في أي سنة من السنين. كان لها الحق في ذلك: ثبتت هذه الميزة في عقد الزواج حين تزوجت ذلك الحارس الإمبراطوري الأجنبي.

- ربما كان بسبب هذه الرحلات - فكر الجنرال.

سأل نفسه لماذا والديه لم يكونا متفاهمين. كان الحارس الإمبراطوري يخرج، وبما أنه لم يكن قادراً على تدمير العالم، الممتلئ بالكائنات الغريبة - بمدن أجنبية مثل باريس، بقصورها ولغتها وعاداتها الغريبة - لذا كان يقتل صغار الظباء، الدببة والأيائل. نعم، ربما كان ذلك بسبب تلك الرحلات. نهض الجنرال وتوقف أمام المدفأة الدائرية من البورسلان الأبيض التي كانت في الماضي تدفئ غرفة نوم والدته. مدفأة هائلة عمرها أكثر من مئة سنة، تشع حرارة كما يشع شخص بدين وكسول طيبة، محاولاً التخفيف من الأنانية، محولاً ذلك إلى فعل لطيف، إلى نوع من الرحمة السهلة والبخسة. أدرك فجأة أن والدته كانت تعاني كثيراً من البرد. المنزل كان معتماً جداً بالنسبة لها، مع غرفه المقببة، هناك وسط الغابة؛ لذا غلفت جدران الغرف بحريرٍ ألوانه فاتحة. عانت من البرد، إذ أن الريح دائمة في الغابة، حتى في الصيف، رياح لها طعم الجدول، طعم ربيعي ولاسيما حين تسيل المياه وتفيض بسبب ذوبان الثلج في الجبال. عانت من البرد، لذا أمرت بأن تكون المدفأة الدائرية من البورسلان دائمة الاشتعال. كانت أمه تنتظر حدوث معجزة ما. جاءت لتعيش في أوروبا الشرقية لأن العاطفة التي ولدت عندها كانت أقوى من ذكائها وبصيرتها. تعرّف الحارس الإمبراطوري عليها حين أرسل إلى السفارة في باريس في الخمسينات. تعرّف عليها أثناء الرقص، وما كان أي منهما يستطيع فعل شيء حيال ذلك اللقاء.

صدحت الموسيقى. الحارس الإمبراطوري قال للكونتيسة الفرنسية: "هذا الشعور في بلدي يَمثُل بقوة وحسم أكثر" كل ذلك حدث في حفلة رقص نظمتها السفارة. كانت النوافذ مغطاة بستائر من الحرير الأبيض؛ كانا واقفين إلى جانب إحدى تلك النوافذ وهما ينظران إلى الراقصين. بدا الشارع أبيض. لقد أثلجت تلك الليلة في باريس. في تلك اللحظة دخل صالة الرقص واحد من أولئك الورثة لآل لويس وكان يحكم فرنسا في ذلك الحين. انحنى جميع الحاضرين. كان العاهل يرتدي فراكاً أزرق وصدرة بيضاء، وبحركة بطيئة رفع نظارته المؤطرة بالذهب. حين استوى الجميع نظر كل منهما في عيني الآخر، ومذ ذاك أدركا بأنه مقدر لهما العيش سوية وبأنهما لا يستطيعان فعل شيء حيال ذلك.

ابتسما شاحبين ومرتبكين. استمرت الموسيقى في الصالة الأخرى. سألت الشابة الفرنسية: "في بلدك. .. أين؟" وتابعت الابتسام بعينيها الحسيرتين. لفظ الحارس الإمبراطوري اسم بلده. الكلمة الحميمة الأولى التي قالها لتلك الشابة كانت اسم وطنه.

وصلا إلى بلده بعد سنة تقريباً من ذلك اللقاء. غطت الشابة الفرنسية نفسها بالشالات والبطانيات في عمق العربة. اجتازا الجبال، عبرا النمسا عبر التيرول*. استقبلهما في فيينا الإمبراطور والإمبراطورة. أظهر الإمبراطور كرمه مثلما يصفونه في الكتب المدرسية. قال لها: "امضي بحذر! ثمّت في الغابات حيث يأخذك دببة أيضاً. هو واحد منها". وابتسم الإمبراطور. وابتسم الجميع. كان ذلك اهتماماً خاصاً: سمح الإمبراطور لنفسه بمزحة مع الزوجة الفرنسية للحارس الإمبراطوري الهنغاري. أجابت

---

* التيرول: مقاطعة غربي النمسا في جبال الألب. م.

المرأة: "سأحاول ترويضه بالموسيقى يا صاحب الجلالة، مثلما فعل أورفيوس* بالوحوش". سافرا عبر المروج والغابات التي تضوع برائحة الفاكهة. حين اجتازا الحدود توارت الجبال والمدن فأجهشت المرأة بالبكاء. "شيري. قالت. أشعر بالدوار. هنا كل شيء يبدو لا نهائياً". شعرت بالدوار مما رأت بمجرد النظر إلى السهب الذي ينازع مشحوناً بهواء الخريف الثقيل الذي يغطي كل شيء، بذلك السهب القفر حيث تمّ حصاد كل شيء، بذلك السهب حيث تقدما خلال ساعات لا نهائية دون رؤية حتى الطريق، وهما لا يلمحان سوى أسراب الكراكي في السماء، حيث حقول الذرة متلفة مثل ما بعد المعركة إذ أن حتى المشهد يسقط جريحاً بعد مرور الجيوش فوقه. لم يجب الحارس الإمبراطوري، ولبث صامتاً في عمق العربة عاقداً يديه. كان يمتطي أحياناً صهوة أحد الأحصنة ويخب إلى جانب العربة خلال ساعات. كان ينظر إلى وطنه وكأنه يراه للمرة الأولى، ينظر البيوت البيض مع نوافذ بشبابيكها الخارجية المطلية بالأخضر، بيوت واطئة مع رواق، البيوت التي نزلا فيها في الليالي، بيوت أبناء وطنه، تلك البيوت المتوارية في عمق الحدائق، بغرفها المنعشة حيث الأثاث كله بدا له أليفاً حتى رائحة الخزائن. نظر إلى المشهد الموحش والحزين الذي لامس قلبه كما لم يفعل من قبل: نظر إلى الآبار مع أذرع التدوير عبر عيني زوجته، إلى الأراضي القفر، إلى غابات شجر البتولا، إلى السحب الوردية في السماء الشفقية فوق السهب. انفتح الوطن أمامهما وشعر الحارس الإمبراطوري، بين نبضات

---

* أورفيوس: شاعر غنائي وموسيقي بارع في الأسطورة الإغريقية. كانت موسيقاه تؤثر بالناس والوحوش على حدٍ سواء. م.

قلبه القوية، أن المشهد الذي يستقبلهما يمثّل أيضاً قدره المحتوم. مكثت زوجته جالسة في عمق العربة بصمت. تتناول أحياناً المنديل لتجفف به الدموع. حينئذٍ كان ينحني من فوق صهوة المطية لينظر في عينيها مستفسراً. تجيب المرأة بإيماءة فحسب مشيرة إلى متابعة المسير. كان كل منهما هو قدر الآخر.

في المرحلة الأولى استطاع المنزل أن يهدئ من روع المرأة. بدا لها كبيراً، والغابات والجبال تحميه من السهب؛ ذلك المنزل أصبح بالنسبة لها وطنها في بلد أجنبي. في تلك المرحلة كانت تصل عربات الشحن، واحدة في كل شهر، قادمة من باريس وفيينا، محملة بالأثاث، الحرير، لوحات حفرية وبيانو: كانت المرأة تريد ترويض الوحوش بالموسيقى. لقد تساقطت الثلوج الأولى فوق الجبال حين استقرا واستطاعا البدء بحياتهما اليومية في ذلك المنزل. لقد ترك الثلج المنزل معزولاً؛ حاصره تماماً مثل جيش صامت ومظلم، قادماً من الشمال قرب إحدى القلاع. كانت تأتي في الليالي إلى الغابات صغار الظباء والأيائل وتقف وسط الثلوج تحت ضوء القمر وهي تنظر إلى النوافذ المضيئة للمنزل، حانية رؤوسها تضيء عيونها الزرقاء القاتمة والرصينة، مسحورة وساحرة بينما تستمع إلى الموسيقى الخارجة من هناك. "أترى...؟" تسأل المرأة ضاحكة وهي جالسة إلى جانب البيانو. تهبط ذئاب الجبال المغطاة بالثلج في شباط؛ فيشعل الخدم والصيادون النيران في الغابة والوحوش تعوي وتدور حول النار مسحورة. كان الحارس الإمبراطوري يبعدها بالسكاكين بينما زوجته تراقبه من النافذة. ثمّت شيء بينهما لم يكن من الممكن إصلاحه. مع ذلك كانا يحبان بعضهما.

اقترب الجنرال من صورة والدته. اللوحة كانت من عمل رسّام فييني، الرسّام ذاته الذي رسم الإمبراطورة بشعرها المتموج: تعرّف الحارس

الإمبراطوري على اللوحة لأنه رآها في مكتب الإمبراطور، في القصر الإمبراطوري. ترتدي الكونتيسة في البورتريه قبعة من القش مزينة بالورود الزهرية كالتي تضعها الفلورنسيات في الصيف. للوحة إطار مذهب ومعلقة على حائط أبيض، فوق قطعة أثاث من شجر الكرز مليئة بالأدراج. قطعة الأثاث هذه كانت تعود لأمه. استند الجنرال عليها بكلتا يديه كي يتأمل اللوحة المعلقة في الأعلى. كانت الشابة التي في لوحة الرسّام الفييني تحني رأسها قليلاً ونظرتها الرقيقة والرصينة ضائعة في العدم وكأنها تسأل "لماذا؟". تلك هي الرسالة التي يوحي بها البورتريه. للوجه ملامح نبيلة، والعنق مرهف ،كذلك اليدين المغطاتين بقفازين قصيرين، ومرهفين كذلك كتفاها وفتحة العنق البيضاء المحاطة برداء أخضر فاتح. كانت تلك المرأة غريبة دائماً. أطلق الحارس الإمبراطوري وهي حرباً دون التفوه بكلمة: لقد تعاركا عبر الموسيقى والصيد، عبر الرحلات والحفلات؛ حفلات يكون المنزل فيها مضيئاً، متقداً تقريباً، وكأنه يعلن عن حريق في صالوناته الكبيرة؛ حين تمتلئ الإصطبلات بالخيول والعربات التي تعود للمدعوين، وحين يقف بعد كل أربع درجات من مدرج المدخل أحد جنود الخيالة خفيراً، رابضاً طوال الليل بثبات - دون أي حركة كتمثال من الشمع - ممسكاً بشمعدان من الفضة له اثنا عشر ذراعاً؛ كل ذلك - الأضواء، الموسيقى، كلمات المدعوين، رائحة عطر أجسادهم التي تطوف في الصالونات - يبعث على الإحساس بأن الحياة حفلة يائسة، حفلة مهيبة وتراجيدية، حين يعلن عن نهايتها بصوت البوق وبأمر ما مشؤوم. الجنرال يتذكر تلك الحفلات. كانت الخيول والعربات تبقى أحياناً وسط الغابة المغطاة بالثلوج إلى جانب نار هائلة، لأن الإصطبلات لم تكن تتسع لها. حتى أنه حضر إلى إحدى تلك الحفلات إمبراطور النمسا، والذي كان ملك هنغاريا. جاء بعربته يرافقه خيالة مزخرفون بريش البجع في خوذاتهم. قضى يومين وهو يصطاد في

الغابات، نزل في الجناح الآخر من البناء، نام في سرير من الحديد حتى أنه رقص مع سيدة البيت. تحدثا خلال الرقص وكانت عينا المرأة ممتلئتين بالدموع. توقف الملك عن الرقص. انحنى وقبّل يد السيدة، رافقها إلى الصالون، حيث رجال موكبه يقفون على شكل شبه دائرة. قاد السيدة إلى جانب زوجها وقبّل يدها من جديد.

- عمّا تكلمتما؟ - سأل الحارس الإمبراطوري زوجته فيما بعد، بعد ذلك بزمن طويل.

لم ترغب المرأة بالقول. لم يعرف أحد أبداً ما قاله الملك لتلك المرأة القادمة من بلاد أجنبية والذي جعلها تبكي أثناء الرقص. الناس المحيطون تكلموا طويلاً عن ذلك.

4

يحتوي المنزل على كل شيء، كقبر هائل من الحجارة المحفورة حيث ترقد رفات بضع أجيال وقد تآكلت ثياب الحرير الرمادية والألبسة السوداء للنساء والرجال في الزمن الغابر. يحتوي كذلك على الصمت وكأنه سجين متحمس ومؤمن يموت شيئاً فشيئاً في عمق الزنزانة تاركاً لحيته تنمو فوق أسماله وثيابه الرثة مستلقياً فوق كومة من القش العفن. يحتوي كذلك على الذكريات، على ذاكرة الأموات المخفية في ثنايا الغرف، ذكريات نمت كالفطور، كالعفن الذي يتكاثر مثل الخفافيش، مثل الفئران أو الحشرات في الأقبية الرطبة للبيوت الشديدة القدم. شعر بارتجافة بعض الأيادي في مقابض الأبواب قادمة من الأزمنة القديمة، ببريق لحظات مضت ممتلئة بالشك، حين لا تتجاسر تلك الأيادي على فتح الأبواب. كل البيوت التي يعيش الناس فيها وقد مسها الشغف بكل قوته تمتلئ بهذا المحتوى الغامض.

نظر الجنرال إلى بورترية والدته. لقد عرف كل ملامح ذاك الوجه النحيل. تلك العينان المتأملتان عبور الزمن بتعابير الاحتقار الحالم والحزين، بنظرة نساء الماضي اللواتي يعتلين المشنقة وقد علت وجوههن نظرة الاحتقار ذاتها للذين يموتون والذين يُقتلون. كان لعائلة أمه قصر في مقاطعة بريتاني* إلى جانب البحر. كان عمر الجنرال ثماني سنوات حين أخذوه لكي يقضي الصيف هناك. في تلك المرحلة كانوا يسافرون في القطار البطيء جداً. داخل شبك الأمتعة كانت توجد الطرود ملفوفة

---

* بريتاني: مقاطعة تاريخية في شمال غرب فرنسا بين المانش والأطلسي. عاصمتها رين. م.

بقماش مطرز عليه الأحرف الأولى من اسم والدته. لقد أمطرت في باريس ذلك الصيف. كان الطفل يجلس في عمق مقصورة داخلها مبطن بحرير أزرق سماوي، ومن هناك تأمل المدينة عبر النوافذ المغبشة: مدينة ملتمعة ورطبة كبطن سمكة بدينة. نظر إلى أسطح القرميد الشامخة، إلى المداخن العالية التي يرتفع منها الدخان الرمادي وهي تميل بين ستائر بالية في سماء ممتلئة بالرطوبة، وكأنها تعلن للعالم شيئاً حول أقدار مختلفة لا يمكن إدراكها. كانت النساء تتقدم تحت المطر ضاحكات وهن يرفعن قليلاً تنانيرهن بأيديهن وأسنانهن تلتمع ساطعة مثل المطر: المدينة الغريبة، الكلمات الفرنسية، كل ذلك كان يمكن أن يكون شيئاً مفرحاً، لكن الطفل مازال غير قادر على فهم ذلك بهذه الصورة. كان يبلغ الثامنة من العمر جالساً داخل المقصورة في منتهى الجدية إلى جانب والدته مقابل وصيفته ومعلمته ،التي شعر بأنها تحتفظ له بوظيفة ما. الجميع كان ينظر إليه، هو، الصغير المتوحش القادم من بعيد، من الغابة الممتلئة بالدببة. كان الطفل ينطق الكلمات الفرنسية بحذر، بانتباه وقلق. يعرف بأنه يتكلم أيضاً نيابة عن والده، عن المنزل، عن الكلاب والغابة وعن مأواه الذي غادره. انفتحت البوابة ودخلت العربة إلى الفناء الواسع، انحنى الخدم بلباسهم الرسمي أمام السلم الهائل. لقد بدا له كل شيء معاد قليلاً. قادوه عبر صالونات فسيحة، حيث كل شيء في مكانه وحيث بدا له كل شيء متصنعاً ومتوعداً. في الصالون الأوسع من الطابق الأول كانت تنتظره جدته الفرنسية. لها عينان رماديتان وشارب أسود رفيع وقد جمعت شعرها في عقيصة مرتفعة، شعرها مشوب بالحمرة وباهت وكأن الزمن جعلها تنسى غسله. قبّلت الطفل وبيديها البيضاويين العظميين أمالت رأس القادم للتو إلى الخلف ونظرت إليه هكذا من الأعلى. "Toute de même"، قالت للأم التي

كانت إلى جانبه، قلقة قليلاً وكأن ابنها يمر بامتحان يمكن أن ينتج عنه أي شيء. قدموا فيما بعد نقيع الزيزفون. كان له رائحة لا تُحتمل وشعر الطفل بالغثيان. أجهش حوالى منتصف الليل بالبكاء وبدأ بالتقيؤ. "احضروا لي نيني" طلب ،وهو غارق بالبكاء. كان مستلقياً في السرير شاحباً كميّت.

ارتفعت حرارته في اليوم التالي وأخذ يهذي. وصل بعض الأطباء المترسمين - يرتدون السموكين الأسود وصدرة بيضاء مع ساعة جيب من الذهب - انحنوا فوق الطفل، للحاهم وثيابهم رائحة الأشياء التي في القصر ذاتها والتي لشعر وفم الجدة. فكر الطفل بأنه سيموت إذا لم تتلاش تلك الرائحة. لم تنخفض الحرارة حتى في نهاية الأسبوع. نبض الولد لم يكن منتظماً. حينئذٍ أرسلوا برقية إلى نيني. مضى أربعة أيام إلى أن وصلت المرضعة إلى باريس. لم يتعرف كبير الخدم عليها في المحطة، بيد أن نيني وصلت سيراً إلى القصر مع كيس معقود في يدها. وصلت كما تصل الطيور المهاجرة: لا تتكلم أية كلمة فرنسية، لا تعرف الشوارع، لم يستطع أحد قط شرح كيف وجدت ذلك البيت المجهول الذي يخبئ الطفل المريض في تلك المدينة الغريبة. دخلت الغرفة، أخرجت الطفل المحتضر من السرير - كان صامتاً تماماً وعيناه كانتا تلتمعان فحسب - وضعته في حضنها، عانقته بقوة ومكثت جالسة صامتة وهي تهدهده. في اليوم الثالث نادوا الخوري كي يعطيه مسحة الزيت المقدس. في تلك الليلة خرجت نيني من غرفة المريض وقالت للكونتيسة باللغة الهنغارية:

- أعتقد أنه سينجو.

لم تبك، كانت متعبة جداً فحسب، لأنها لم تنم منذ ستة أيام. عادت إلى غرفة المريض، أخرجت من كيسها بعض الطعام الذي أحضرته معها من البيت وبدأت تأكل.

خلال ستة أيام أبقت على الطفل حياً بعزيمتها. كانت الكونتيسة تصلي وتبكي راكعة أمام الباب. هناك كان الجميع: الجدة الفرنسية، الخدم، الخوري الشاب بحاجبيه المرتفعين الذي يمكنه الدخول والخروج في أي ساعة. الأطباء لم يعودوا، غادروا إلى بريتاني مع نيني؛ الجدة الفرنسية ظلّت في باريس متفاجئة وغاضبة. لم يتجرأ أحد بالطبع القول بالكلمات عن سبب مرض الطفل. لم يقل أحد شيئاً، مع أن الجميع يعرف الأسباب. كان الجنرال يشتاق إلى الحنان، وحين انحنى كل أولئك الغرباء فوقه، وحين اشتم تلك الرائحة التي لا تُحتمل وتنبعث من كل شيء، قرر بأنه يفضّل الموت. كانت الريح تهب في بريتاني والمد والجزر يغسل الحصى القديم. أمواج البحر تتحطم على صخور مشوبة بالحمرة. كانت نيني هادئة جداً وهي تنظر مبتسمة إلى البحر والسماء وكأنها قد رأتهما من قبل. في الزوايا الأربع من القصر تنتصب أربعة أبراج دائرية، قديمة جداً مبنية من الحجارة: كان أسلاف الكونتيسة يخفرون من هناك القرصان سوركوف. أصبح الطفل أكثر دفئاً وكان يضحك كثيراً. لم يعد يخاف من شيء، وهو يعرف بأنه ونيني معاً أكثر قوة من أي كان. جلسا على شاطئ البحر والريح تعصف بأطراف اللباس الأزرق البحري لنيني، كان لكل شيء طعم الملح، حتى الهواء والأزهار. في الأصباح، حين يتراجع المد تظهر ثقوب الصخور ممتلئة بعناكب البحر بأرجلها المشعرة، سراطين ببطونها الحمراء ونجوم البحر اللزجة بلونها البنفسجي الفاتح. في فناء القصر ثمّت شجرة تين عمرها أكثر من مئة عام تبدو وكأنها حكيم شرقي يروي حكايات بسيطة جداً فحسب. تحت أوراقها الكثيفة تختبئ رائحة منعشة، عذبة ومثملة. جلس الطفل مع مرضعته عند جذع تلك التينة في الظهيرة بينما البحر يرسل صخبه المنهك، مكثا صامتين.

- سأكون شاعراً - قال في أحد الأيام رافعاً نظره ومائلاً برأسه.

تأمل البحر بينما شعره الأشقر يموج في الريح الدافئة وهو ينظر من خلف هدبيه نصف المغلقين في البعيد. عانقته المرضعة جاذبة رأسه صوب ثدييها وأجابت:

- كلا. ستكون جندياً!

- مثل والدي؟ - سأل الطفل محنياً رأسه - والدي شاعر أيضاً، ألا تعلمين؟ إنه يفكر دائماً بشيء آخر.

- حقاً - لاحظت المرضعة متنهدة - لا تخرج إلى الشمس ياروحي، سيؤلمك رأسك.

مكثا جالسين هكذا طويلاً عند جذع شجرة التين وهما يستمعان إلى البحر. كان صوته أليفاً، كأصوات الغابات في وطنه. فكر الطفل والمرضعة بأن كل شيء مترابط في هذا العالم.

5

لا يتذكر المرء غالباً الأشياء إلا بعد مضيّ سنين عديدة. تنقضي بضع عقود حتى ندخل غرفة معتمة، حيث مات أحدهم، وحينئذٍ نسمع صوت البحر والكلمات القديمة وكأن تلك الكلمات القليلة عبّرت عن معنى الحياة. مع ذلك، فيما بعد، سيكون ثمّت أشياء نتكلم عنها.

في ذلك الخريف، حين عادوا من بريتاني، كان الحارس الإمبراطوري ينتظرهم في فيينا. سجلوا الفتى في المدرسة الداخلية للأكاديمية العسكرية. قدموا له سيفاً صغيراً، سروالاً طويلاً، وخوذة ووضعوا له خنجراً في الخصر. كانوا يأخذون جميع الطلبة للتنزه في "الغرابن" وهم يرتدون بزة رسمية باللون الأزرق البحري. كانوا يبدون كأطفال يلعبون لعبة الجنود وهم يرتدون البزة الرسمية. يرتدون كذلك القفازات البيضاء ويحيّون بأناقة على الطريقة العسكرية.

تقع الأكاديمية العسكرية قريباً من فيينا، في أعلى هضبة وهي بناء أصفر اللون: من نوافذ الطابق الثاني يمكن رؤية الجزء القديم من المدينة، شوارعها المستقيمة والمنظمة وكذلك القصر الصيفي للإمبراطور، وقرميد قصر "شونبرون" وممرات التنزه المُقامة وسط حديقة الأكاديمية الهائلة، المكتظة بالأشجار الوارفة. كل شيء منظم بدقة في الأروقة البيضاء والمقببة، في قاعات المحاضرات، في صالة الطعام، في صالات النوم، في كل مكان، إذ يبدو ذلك المكان وكأنه الوحيد في العالم، حيث كل ما هو فوضوي وعديم الجدوى أصبح منظماً وفي مكانه المناسب. البروفسورية هم ضباط متقاعدون. لكل شيء رائحة

الأملاح المعدنية. ينام في كل مهجع نوم ثلاثون فتى، ثلاثون فتى من العمر ذاته على أسرّة متلاصقة من الحديد، مثل سرير الإمبراطور. فوق باب المدخل ثمّت صليب من الصفصاف مع قناديل صغيرة مباركة. تبقى مهاجع النوم في الليالي مضاءة بضوء خفيف يميل إلى الزرقة. يوقظونهم في الأصباح على صوت البوق؛ خلال أشهر الشتاء يكون الماء متجمّداً أحياناً في المغاسل، حينئذٍ يُحضر الجنود الوصفاء ماء ساخناً من المطابخ بأوعية كبيرة.

كانوا يتعلمون اليونانية، علم القذائف، السلوك حيال العدو والتاريخ. كان الفتى شاحباً دائماً ويسعل بشكل متكرر. يأخذه القس للتنزّه في محيط الشونبرون كل عصر من أيام الخريف. كانا يتقدمان ببطء في ممرات التنزّه والشوارع. ثمّت نافورة من الحجارة في الطريق مغطاة بالطحالب الخضراء والعفن، يتدفق منها ماء مذهب بفعل أشعة الشمس. كانا يتنزهان في الدروب المستقيمة بين الأشجار المشذبة بينما الفتى يتمشى بظهر مستقيم رافعاً يده اليمنى بالقفاز الأبيض ليحيّي الضباط القدماء على الطريقة العسكرية ،ضباط نظاميون بصرامة ؛كانوا يقومون بنزهاتهم عصر كل يوم بلباسهم الرسمي وكأنهم يحتفلون كل يوم بعيد ميلاد الإمبراطور. أحياناً تعبر بالقرب منه سيدة مكشوفة الرأس وتحمل مظلة بيضاء مخرمة، تعبر مسرعة وينحني أمامها القس.

- الإمبراطورة - يهمس للفتى.

وجه السيدة شديد البياض. شعرها كثيف وأسود ملفوف على شكل جديلة ثلاثية حول رأسها. تتبعها على بعد ثلاث خطوات منها

سيدة المرافقة، امرأة ترتدي السواد تمشي منحنية قليلاً وكأن السير السريع أنهكها.

- الإمبراطورة ـ كرر القس بنبرة ورعة.

نظر الفتى إلى السيدة التي تسير وحيدة، راكضة تقريباً في دروب الحديقة وكأنها تهرب من شيء ما.

- إنها تشبه والدتي ـ قال الفتى مرة، لأنه تذكر البورتريه المعلّق فوق المكتب ،في مكتب والده.

- لا تقل ذلك. هذا لا يمكن قوله ـ أجاب القس العسكري بجدية تامة.

كانوا يتلقون الدروس منذ الصباح حتى الليل لكي يتعلموا ماالذي يمكنهم قوله وما لا يمكنهم. في الأكاديمية، حيث يتعلم أربعمئة طالب ثمّت صمت يشبه سكون قنبلة في لحظات ما قبل الانفجار. هناك فتيان من كل مكان، قادمون من منازل تشيكية، من مزارع مورافية، من قلاع في التيرول، من بيوت الأشراف في إيستريا، من قصور صغيرة مع نوافذ صغيرة مغلقة بالقرب من غرابن، من بيوت ريفية هنغارية: جميعهم شقر، أنوفهم قصيرة ومرتفعة الطرف والأيادي بيضاء سقيمة، لدى الجميع كنيات طويلة جداً ممتلئة بالحروف الساكنة والأدوات، لدى الجميع ألقاب ومراتب، لكن على الجميع في الأكاديمية ترك ماهيتهم في خزانة الثياب مع بزاتهم المدنية الأنيقة المعدة في فيينا ولندن، مع ثيابهم الداخلية المصنوعة في هولندا. يحتفظون فقط بالكنية الأولى التي تميّز كلاً منهم. كل فتى يتعلم ما يستطيع قوله وفعله وما لا يستطيع. كان بينهم سلافيون بجبهات ضيقة يمتزج في دمائهم كل مراتب وطباع الإمبراطورية؛ ثمّت أرستقراطيون لهم من العمر عشر

سنوات، سقيمون بعيون زرق تنظر في الفراغ، وكأن أسلافهم رأوا كل شيء، وكأنهم نظروا إلى كل شيء نيابة عنهم أيضاً؛ وكان هناك كونت من تيرول قتل نفسه وهو في سن الثانية عشرة، لأنه كان مغرماً بابنة خالته.

كونراد كان ينام في السرير المجاور له. كان لهما من العمر عشر سنوات حين تعرفا على بعضهما.

كان قوي البنية، لكنه نحيل مثل فتيان الأنسال القديمة، حيث العظام في جسده غالبة على اللحم. بطيئاً دون أن يكون كسولاً، وكأنه يحسب إيقاعه عن وعي. كان والده موظفاً حكومياً في غاليسيا، ولذا حصل على لقب بارون؛ والدته بولونية. حين يضحك الفتى تظهر حول فمه ملامح نمطية، طفلية تميّز السلافيين. كان قليل الضحك، صامتاً ويقظاً.

تعايشا بطبيعية منذ اللحظة الأولى كتوأمين في رحم الأم. لذا لم يكن عليهما أن يقوما بأي "ميثاق صداقة" بينهما كما يفعل الفتيان عادة في مثل عمره، حين ينظمون طقوساً مهيبة وسخيفة، طافحة بالعاطفة المفرطة، حين تظهر العاطفة الأولى لديهم - بشكل غير واعٍ ومشوّه - يريدون للمرة الأولى استملاك جسد وروح الآخر، مخرجين إياه من العالم لأجل الاستحواذ عليه والتفرد به. هذا، وهذا فقط هو معنى الحب والصداقة. الصداقة بين هذين الولدين كانت من الجدية والصمت مثل أي مشاعر هامة تستمر مدى الحياة، ومثل جميع المشاعر العظيمة تحتوي كذلك على عناصر من الحياء والإثم. لا يستطيع المرء أن يستحوذ على شخص وإبعاده عن الآخرين دون أن يشعر بتأنيب الضمير.

كانا يعلمان منذ اللحظة الأولى بأن لقاءهما سيستمر طوال الحياة.

الهنغاري طويل، نحيل وهش: في تلك المرحلة كان يتفحصه الطبيب كل أسبوع، إذ أن معلميه كانوا قلقين عليه بشأن رئتيه. سافر الحارس الإمبراطوري إلى فيينا بطلب من مدير الأكاديمية - كولونيل مورايف - لاستشارة الأطباء شخصياً. فهم كلمة واحدة فقط من كل ما قاله له الأطباء، الكلمة هي "خطر". حالة الفتى ليست سيئة، ليس لديه أي مرض، قالوا، لكن لديه نزوع للمرض. خطر، كرروا، هكذا بشكل عام. أقام الحارس الإمبراطوري في نزل اسمه "ملك هنغاريا"، يقع إلى جانب كاتدرائية "سان إستيفان"، في شارع مجاور، حيث اعتاد جده النزول فيه. كانت الممرات مزينة بقرون الأيائل. والخدم يحيّون الحارس الإمبراطوري قائلين: "أقبّل يدك". استأجر غرفتين. غرفتين معتمتين ومقببتين، ممتلئتين بالأثاث المنجد بالحرير الأصفر. أقام الفتى معه خلال تلك الأيام، سكنا في النزل حيث أسماء الضيوف المألوفين محفورة فوق كل باب، وكأن البناء هو دير دنيوي مخصص لسادة المملكة الذين يسافرون وحيدين. يتنزهان في الأصباح في عربة في البراتر. الأصباح كانت قد أصبحت باردة، إذ أنهم كانوا في أوائل تشرين الثاني. في الليالي يرتادان المسرح، حيث الممثلون يبالغون بأداء أدوارهم البطولية، يومئون، يصرخون ويقتلون أنفسهم مرتمين فوق سيوفهم. بعدئذٍ يذهبان للعشاء في مطعم، حيث يحجزان صالة لهما فقط، مع بعض الخدم لخدمتهما. أقام الفتى مع والده دون أن يتفوه بكلمة، بتهذيب سيّد بالغ، وكأنه يضمر شيئاً، وكأنه مسامح عن شيء.

- يقولون بأن ثمّت خطراً - لاحظ الوالد بعد العشاء وكأنه يكلّم نفسه بينما يشعل سيجاراً ثخيناً وأسود - يمكنك العودة إلى البيت إن كنت ترغب بذلك، مع أنني أفضّل ألا تخشى من أي خطر.

- لا أخشى شيئاً يا أبي - أجاب الفتى - الشيء الوحيد الذي أريده هو أن يبقى كونراد دائماً معنا. إن عائلته فقيرة. يطيب لي أن يأتي إلى البيت ويقضي الصيف معنا.

- هل هو صديقك؟ - سأل الوالد.

- نعم.

- إذن هو صديقي أيضاً - قال بجدية.

كان يرتدي فراكاً وقميصاً مطرزاً: لم يعد يرتدي مؤخراً البزة الرسمية. لم يقل الفتى شيئاً، لقد شعر بالارتياح. يعلم بأنه يستطيع الوثوق بكلمة والده. كانوا يعرفونه في كل الأمكنة التي يرتادها في فيينا، في كل المتاجر: في متجر القفازات، في متجر القمصان، في محل الخياطة، في كل المطاعم حيث رؤساء الخدم المهيبون يشرفون على الطاولات؛ حتى في الشوارع يحييه من العربات نساء ورجال بمودة.

- هل ستذهب لرؤية الإمبراطور؟ - سأل الفتى والده قبل أيام من رحيله.

- الملك - قال الوالد مصححاً بنبرة صارمة وأضاف -: لن أذهب لرؤيته أبداً.

أدرك الفتى أن هناك شيئاً حدث بين الاثنين. في اليوم الأخير من إقامة والده قدّم له كونراد. في الليلة السابقة لذلك نام وقلبه ينبض بقوة: شعر وكأنه أمام التزام. "لا يمكن التكلم عن الملك أثناء وجوده"، أخطر صديقه. كان الوالد كريماً ولطيفاً كسيّد عظيم. استقبل كونراد في العائلة مصافحاً إياه.

منذ ذلك اليوم أصبح سعال الفتى أقل. لم يعد وحيداً. إنه لا يتحمّل الوحدة بين الناس.

تربيته - التي تلقاها في منزل الغابة وفي باريس عبر والدته والتي يحملها في دمه - هي التي تحظر عليه التكلّم عما يؤلمه وتجبره على تحمّل كل شيء دون شكوى. الأفضل ألا يتكلم عن أي شيء، هذا ما علموه إياه. مع ذلك لا يستطيع العيش دون أن يكون محبوباً: هذا أيضاً كان إرثه. ربما تلك المرأة الفرنسية هي التي أدخلت إلى العائلة الرغبة في إظهار العواطف إلى الآخرين. في عائلة والده لم يكن شيئاً محبباً التكلم عن الأحاسيس والعواطف، لكن الفتى كان يحتاج إلى أن يحب أحد ما: نيني وكونراد، وهكذا لم يعد لديه حمّى ولا يسعل ووجهه الأبيض النحيل يصبح متورداً ويمتلئ بالحماس والثقة. كانا في مرحلة لم يتحدد فيها الفرق بين الجنسين: وكأنهما لم يختارا بعد. كل خمسة عشر يوماً يقصّ شعره الأشقر المتموج على الصفر والذي يكرهه لأنه يضفي عليه مسحة من الأنوثة. كونراد كان أكثر ذكورة وأكثر هدوءاً. انفتحت أمامهما مرحلة المراهقة ولم يعودا يخشيان شيئاً، لأنهما ليسا وحيدين.

راقبت الأم الفرنسية في نهاية الصيف الأول من باب المنزل الولدين اللذين كانا يصعدان إلى العربة من أجل العودة إلى فيينا. حين غادرا قالت لنيني مبتسمة:

- أخيراً، زواج منسجم جيداً.

مع ذلك لم تبتسم نيني. كان الولدان يأتيان معاً كل صيف، فيما بعد بدآ بقضاء عطلة عيد الميلاد معاً أيضاً في المنزل. كان كل ما لديهما مشتركاً بينهما: بزاتهما، ثيابهما الداخلية؛ في المنزل يتقاسمان الغرفة ذاتها، يقرآن الكتاب ذاته في آن واحد، اكتشفا معاً فيينا والغابات، القراءة والصيد، ركوب الخيل والحياة العسكرية، الصداقة

والحب. نيني كانت قلقة، على الأرجح غيورة قليلاً. لقد مضى أربع سنوات على تلك الصداقة حين بدأ الولدان في العزلة عن العالم، كان لهما أسرارهما. علاقتهما كانت كل يوم أكثر عمقاً وأكثف. كان ابن ضابط الحرس يتباهى بأن يكون لديه صديق ككونراد، كان يرغب بتقديمه إلى الجميع وعرضه كأنه عمل فني، وكان يرغب أيضاً في الإغلاق عليه وعزله عن الآخرين وكأنه يخشى انتزاعه منه.

- هذا كثير. قالت نيني للأم. سيرحل يوماً ما حينئذٍ سيتألم كثيراً.

- هكذا هي الحياة الإنسانية. أجابت الأم وهي جالسة أمام المرآة تنظر إلى جمالها الذي بدأ يذوي. في يوم ما جميعنا سنفقد من نحب. من لا يتحمّل ذلك لا يستحق أية شفقة، لأنه ليس رجلاً بحق.

سرعان ما ترك بقية الفتيان في الأكاديمية المزاح حول صداقته هذه: لقد اعتادوا عليها كما يعتاد المرء على ظاهرة طبيعية. حين يتكلمون عن أي واحد منهما، يذكرون الاثنين معاً: "هنريك وكونراد" أو "كونراد وهنريك". لم يسمحوا لأنفسهم بالمزاح حول علاقتهما. هناك شيء في تلك العلاقة، رقة، جديّة، تفانٍ، شيء من القدرية، وكان كل هذا البهاء يجرّد حتى أكثر الفتيان مزاحاً من سلاحه. في كل التجمعات البشرية ثمّت غيرة من مثل هذا النوع من العلاقات. لا ينشد الناس شيئاً أكثر حماسة من صداقة نزيهة. ينشدونها بحَميّة حتى وإن كانت بلا أمل. كان الفتيان الآخرون في الأكاديمية يلجؤون إلى الاعتداد بأصولهم، بدراستهم، باللهو المبكر أو بمآثرهم الرياضية، بالعشق الفوضوي والمؤلم السابق لأوانه،. صداقة كونراد وهنريك تتألق في هذه الفوضى الإنسانية مثل ضوء خفيف في طقس نذوري من القرون الوسطى. ما من شيء أكثر فرادة بين هذين الفتيين من مثل هذا النوع

من المودة دون أنانية، دون منفعة، مودة حيث لا يأمل أي منهما شيئاً من الآخر، حيث لا يطلب شيئاً، أية مساعدة، أية تضحية. عادة يطلب الفتيان تضحية من الأشخاص الذين يضعون فيهم آمالهم. يشعر الولدان بأنهما يعيشان حالة من الامتنان، حالة لا يمكن تسميتها، حالة بديعة من الحياة الإنسانية.

لم يكن لديه أي شيء أكثر رقة في حياته من هذه العلاقة. حتى فيما بعد، حين جاءت له الحياة برغبات نقية وفجة، أحاسيس قوية، ارتباطات قدرية وشغوفة: كل ذلك أسفر عن قسوة أكثر ولا إنسانية أكثر. كان كونراد جدياً وبالغ الحياء، مثل أي رجل حقيقي، حتى وهو في العاشرة من عمره. حين بدأ فتيان الأكاديمية يصبحون مراهقين ويقومون بالبذاءات، محاولين معرفة أسرار حياة البالغين بتبجح محزن، جعل كونراد هنريك أن يقسم بأن يعيشا في طهارة. بقيا على قسمهما خلال سنوات طويلة. لم يكن ذلك بالأمر السهل. كانا يعترفان لبعضهما كل خمسة عشر يوماً: يحضّران معاً قائمة بخطاياهما. كانت رغباتهما تعلن عن نفسها في الدم، في الأعصاب: لقد أصبحا شاحبين ويشعران بالدوار عند تبدّل الفصول. لكنهما تابعا عيشهما في الطهارة، وكأن الصداقة ـ طبقتها السحرية تغطي حياتهما الفتية ـ تستطيع التعويض لهما عن كل شيء، عن كل ما يطارده الآخرون، الفضوليون وعديمو الصبر، في معاناة رهيبة تقودهم إلى مشاهد حالكة من الدرك الأسفل للحياة.

عاش الاثنان حسب نظام راسخ بعد قرون من الممارسة والتجربة. يتعريان كل صباح من الخصر إلى الأعلى، يعصبان نفسيهما ويضعان قناعيهما ويكرسان ساعة للمسايفة في الصالة الرياضية للأكاديمية. بعد ذلك يركبان الخيل. هنريك كان ماهراً جداً، بينما كونراد يعارك

بيأس لكي يجد التوازن والأمان، إن جسده يفتقر إلى ذاكرة لمثل هذه الأهلية، لمثل هذه الوراثة الجينية. كان هنريك يتعلم كل شيء بسهولة، بينما كونراد يجد صعوبة في ذلك، لكنه يحتفظ بكل ما يتعلمه بطريقة يائسة وحرص شديد، وكأنه يدرك بأن ذلك هو كنزه الوحيد في العالم. هنريك يتدبر أمره بسهولة بين الآخرين، دون أن يعيرهم اهتماماً، بمشاعر التفوّق، كشخص لم يعد يفاجئه شيء؛ كونراد يتصرف بصرامة أكثر، محترماً دائماً المعايير السارية. سافرا ذات صيف إلى غاليسيا لزيارة أبوي كونراد. بعد أن أصبحا ضابطين شابين. كان البارون - رجلاً عجوزاً، أصلع ومتواضعاً، مرهقاً بعد أربعين عاماً من الخدمة العامة وعدم إشباع الطموحات الاجتماعية لبولونية نبيلة - يتحرق شوقاً بإخلاص مريك قليلاً للاهتمام بتسلية سيدين شابين. ينبعث من المدينة هواء ثقيل، مع أبراجها القديمة، مع النافورة وسط الساحة الرئيسية المربعة الشكل، مع بيوتها بغرفها المعتمة المقببة، وقاطنوها - أوكرانيون، ألمان، يهود وروس - يعيشون في ازدحام تحت السيطرة الرسمية، وكأنه يوجد في المدينة، في البيوت المعتمة بهوائها الفاسد، سيل يزداد قوة، نوع من الثورة أو ببساطة عدم رضا بائس تكتنفه النميمة؛ أو ليس هذا حتى: البيوت، الساحات، الحياة الكاملة لتلك المدينة تميزها حالة عصبية فاسدة وأجواء كمن ينتظر افتتاح السوق. الكاتدرائية فحسب حافظت على نفسها بعيدة عن هذا الازدحام، عن هذا الصخب الدائم ببرجها المتين وقببها الكبيرة وكأن أحداً ما أعلن عن قانون لمرة واحدة ووحيدة - مع كل عواقبه - ما زال سارياً، محتوماً وأبدياً. نزل الشابان في فندق، إذ أن بيت البارون لا يحتوي سوى ثلاث غرف صغيرة جداً. في الليلة الأولى، بعد عشاء وفير من لحم مدهن ونبيذ

زكي الرائحة وقوي ـ كان والد كونراد موظفاً حكومياً قديماً والأم البولونية الحزينة والمجملة بالمساحيق الحية الألوان، البنفسجي والأحمر، كامرأة متصابية، يقدمان خدماتهما بإثارة ورعة وحزينة في ذلك البيت الذي تدل عليه علائم الفقر، وكأن سعادة ذلك الابن الذي لا يشاهدانه إلا قليلاً تتعلق بنوعية الأطباق المقدمة ـ مكث الضابطان الشابان لفترة جالسين في ركن معتم من صالة الطعام المزينة بسعف النخيل التي يعلوها الغبار في الفندق، بينما يحتسيان نبيذاً ثقيلاً وقوياً، نبيذاً هنغارياً، وهما يدخنان صامتين.

- الآن أصبحت تعرفهما ـ قال كونراد.

- نعم ـ أجاب ابن الحارس الإمبراطوري مع شيء من الشعور بالذنب.

- إذاً أصبحت تعرف كل شيء ـ أضاف الآخر بهدوء وجديّة ـ أصبحت تستطيع تصور ما كانا يفعلانه لأجلي خلال اثنين وعشرين عاماً.

- بالطبع ـ قال هنريك مع غصة في حلقه.

- كل زوج قفاز ـ شرح كونراد ـ الذي كان عليّ شراؤهما، لكي أذهب معك إلى المسرح، مصدرها من هنا. إذا ما اشتريت سرجاً فإنهما لن يأكلا لحماً خلال ثلاثة أشهر، إذا أعطيت إكرامية في حفلة ما فإن والدي لن يستطيع تدخين سيجاره خلال أسبوع. وكل ذلك يحدث منذ اثنين وعشرين عاماً. مع ذلك لم ينقصنِ شيء قط. في أحد الأمكنة البعيدة في بولونيا، على الحدود مع روسيا، ثمّت مزرعة. أنا لا أعرفها. كانت تعود لأمي. من هناك، من تلك المزرعة جاء كل شيء: البزات الرسمية، نقود التسجيل، ثمن بطاقات الدخول إلى المسرح، حتى باقة الورد التي أرسلتها إلى والدتك حين جاءت إلى فيينا، نقود دفع حقوق الامتحانات، تكاليف المبارزة التي كان عليّ مواجهتها مع ذلك

البافاري. كل شيء منذ اثنين وعشرين عاماً. في البداية باعا الأثاث، بعد ذلك الحديقة، الأرض، البيت، ثم باعا صحتهما، راحتهما، سكينتهما، شيخوختهما، طموحات والدتي الاجتماعية، إمكانية الحصول على غرفة أخرى في هذه المدينة المقملة، يكون فيها أثاث لائق لاستقبال الزوار. هل تفهم؟

- آسف جداً ـ قال هنريك مرتبكاً وشاحباً.

- ما من داعٍ للاعتذار ـ قال صديقه بجدية تامة ـ فقط أردت أن تعلم، أن تتعرّف على الوضع. حين استل ذلك البافاري سيفه وهاجمني، وبذل جهداً لجرحي، بفرح غامر، وكأنها مزحة ممتازة تلك الرغبة في تقطيعي نتفاً وتركي معاقاً لمجرد الزهو بالنفس، كنت أرى حينذاك وجه أمي، تذكرتها، رأيتها تذهب إلى السوق كل صباح لكي لا تسرق منها الطباخة بضع قطع نقدية، لأن بضع قطع نقدية يومياً يعني نقوداً كثيرة في آخر العام، نقوداً تستطيع أن ترسلها لي في مغلف... في تلك اللحظة كنت أستطيع قتل البافاري حقيقة، لأنه أراد أذيتي لمجرد الزهو بنفسه، لأنه لا يعلم أن أي جرح بسيط يفعله بي كان سيسبب إثماً ضد شخصين من غاليسيا قد ضحيا بحياتهما لأجلي دون التفوه بكلمة. حين أقدّم إكرامية لأحد الخدم في بيتكم، فإني أستهلك شيئاً من حياتهما. إنه لمن الصعوبة العيش هكذا . قال وقد علا وجهه الاحمرار.

- لماذا؟ ـ سأل الآخر بصوت خفيض ـ ألا تعتقد بأنهما يستمتعان هكذا بكل ما يقومان به؟

- ربما ـ قال الشاب، ثم مكث صامتاً. لم يتكلم قط حول كل هذا. سرد ذلك في تلك اللحظة متلعثماً دون النظر في عيني صديقه ـ

بالنسبة لي أجد صعوبة في العيش هكذا - كما لو أن حياتي ليست ملكي. حين أمرض ينتابني الرعب وكأنني استهلك شيئاً ليس لي، وكأن صحتي ليست لي. أنا جندي، تلقيت تربية لأجل القتل والتضحية بنفسي عند الضرورة. لقد أقسمت على ذلك. لكن لماذا تحمّلا كل ذلك إذا كان يمكنهم قتلي في الجيش؟ هل تفهم ذلك؟ لهما اثنان وعشرون عاماً وهما يعيشان في هذه المدينة ذات الهواء الفاسد، حيث تفوح رائحة كل شيء مثل بيت قذر، مثل نزل من الدرجة الثالثة. تفوح من المدينة كلها رائحة الطعام الرخيص، العطور الرخيصة والأسرّة القذرة. هنا يعيشان دون احتجاج. منذ اثنين وعشرين عاماً لم يسافر والدي إلى فيينا، حيث ولد وترعرع. منذ اثنين وعشرين عاماً وهما لا يسمحان لنفسيهما بالقيام برحلة، بشراء قطعة ثياب إذا لم تكن ضرورية بشكل مطلق، لا يستمتعان بنزهة في الصيف، لأنهما أرادا أن يصنعا مني شيئاً تام الكمال، عملاً فنياً، شيئاً لم يستطيعا تحقيقه في حياتهما، شيئاً أصبحا شديدي الضعف أمامه. أحياناً ،حين أريد أن أفعل شيئاً، تتشلّ يديّ. أشعر بمسؤولية هائلة، حتى أنني تمنيت موتهما - أضاف بصوت خفيض.

- أفهمك.

أمضيا أربعة أيام في المدينة. حين غادرا شعرا للمرة الأولى بأن ثمّت شيئاً حدث بينهما. وكأن أحدهما يدين بشيء إلى الآخر. مع أن كل ذلك لا يمكن توضيحه بدقة بالكلمات.

6

لدى كونراد ملاذ لا يستطيع صديقه ملازمته فيه: الموسيقى. وكأن لديه مكان سرّي ،يخصّه فقط، حيث لا يستطيع أحد في العالم بلوغه، بينما ليس لدى هنريك أذن موسيقية. كان يكتفي بالموسيقى الفجرية والفالس الفييني.

لم يتكلم في الأكاديمية عن الموسيقى قط، مع أن الأساتذة والطلاب الآخرين كانوا يتغاضون ويصفحون، وكأنها نزوة عابرة نمطية في مرحلة الشباب. لدى الجميع نقطة ضعف. ثمّت من يربي كلاباً ومن يركب الخيل. ذلك أفضل من لعب الورق، فكروا. أقل خطراً من النساء، فكروا.

ارتاب الجنرال من أن الموسيقى ليست شغفاً يستثني الخطر. طبعاً لم يتسامحوا في الأكاديمية مع أي تمرد، حتى التمرد الموسيقي. المعرفة بالموسيقى، بالمفهوم الموسيقي، كان يشكّل جزءاً، إلى حدٍ معيّن، من التربية، لكن بالفحوى العام فقط. يعرفون من الموسيقى فقط بأنها تُعزف بالأبواق والطبول، وأن المدير يتقدمهم رافعاً عصا من الفضة أحياناً، وخلف الموسيقيين يسير "بوني" يجرّ طبلاً هائلاً. لهذه الموسيقى وقع قوي ومنتظم، وهي تقدّم الانضباط اللازم للاستعراض العسكري، تجذب المدنيين إلى الشارع وتشكل جزءاً لاغنى عنه في أي مراسم عسكرية. إن استعراض الجنود يكون أكثر تنظيماً على "الكومباس" الموسيقي وتلك الموسيقى مسلية أحياناً، وأحياناً أخرى بهيّة واحتفالية. ما عدا ذلك ما من أحد يعير أي انتباه على الإطلاق للموسيقى.

كان الشحوب يعتري كونراد في كل مرة يستمع فيها إلى الموسيقى، أي نوع من الموسيقى، حتى الأكثر شعبية، تمسّه عن قرب كما لو أنها تلمس جسده حقيقة. يعتريه الشحوب وترتجف شفتاه. الموسيقى تقول له شيئاً لا يستطيع الآخرون إدراكه. على الأرجح لا تحاكي الأنغام إدراكه. الانضباط الذي كان يعيشه، وترعرع عليه والذي ساعده في الحصول على مكانه ومرتبته في العالم والذي اختاره هو ذاته بشكل طوعي - مثل مؤمن يختار لنفسه الإثم والعقاب - ذلك الانضباط يتوارى في لحظات كهذه، جسده المتوتر والمتشنج يبدأ بالاسترخاء. كان مثل سماع الأمر "استرح"، بعد استعراض طويل ومضنٍ للجيش في المراسم العسكرية. ترتجف شفتاه وكأنه يريد قول شيء. في تلك اللحظات ينسى تماماً أين هو، تبتسم عيناه وهما تنظران إلى الفراغ، لا يرى شيئاً مما يحيط به: لايرى قادته أو رفاقه، لا يرى حتى السيدات الأنيقات أو جمهور المسرح. يستمع إلى الموسيقى بكل جسده، مع انتباه يشبه انتباه سجين في زنزانته إلى وقع الخطى التي تجيء ربما بخبر خلاصه. في تلك اللحظات لا يسمع الذين يتوجهون إليه. الموسيقى تحطم العالم إلى شظايا من حوله، تبدّل القوانين الراسخة بطريقة اصطناعية خلال بضع لحظات: في تلك اللحظات لم يكن كونراد جندياً. في إحدى ليالي الصيف، بينما كونراد يعزف في المنزل مع أم الجنرال قطعة موسيقية تُعزف بأربع أيادي حدث شيء. كانوا يجلسون في الصالون قبل العشاء؛ الحارس الإمبراطوري وابنه يستمعان إلى الموسيقى باحترام وهما جالسان في إحدى الزوايا بانتباه وصبر مثلما يقول أحد ما: "الحياة ممتلئة بالواجبات، لذا علينا أن نتحمّل الموسيقى أيضاً. ليس من شيم التربية الحسنة مخالفة السيدات". كانت الأم تعزف

المقطوعة الموسيقية بشغف: عزفا "بولونيزا ـ فانتازيا" لشوبان. وكان كل شيء اعتراه الاضطراب في الصالون. شعر الوالد والابن، وهما جالسان في كرسييهما في تلك الزاوية، بانتظارهما الصبور والانضباطي، بأن ثمّت شيئاً حدث في الجسدين، في جسد كونراد وجسد الأم. وكأن تمرّد الموسيقى رفع الأثاث، وكأن قوة لامرئية حركت الستائر الثقيلة من الطرف الآخر للنوافذ؛ وكأن كل ماكان مدفوناً في القلوب البشرية، كل ما هو محطم وتالف انبعث من جديد، وكأن في قلب كل منهما يختبئ إيقاع مميت بدأ ينبض في لحظة معينة من الحياة بقوة لا ترحم. أدرك المستمعان المنضبطان بأن الموسيقى يمكنها أن تكون خطيرة. الاثنان الآخران، الأم وكونراد، جالسان إلى البيانو، لا يهتمان بالخطر. البولونيزا ـ فانتازيا كانت ذريعة فحسب، لإطلاق بعض القوى في العالم التي تستطيع تحريك كل شيء، تجعل كل شيء ينفجر، كل مايحاول النظام والانضباط الإنساني إخفاؤه. كانا جالسين إلى البيانو بصرامة واستواء، بجسديهما المتوترين وهما ينحنيان قليلاً إلى الوراء، وكأن الموسيقى تشق الهواء أمام خيول لا مرئية في حكاية خيالية تجرّ عربة ملتهبة متقدمة وسط عاصفة فوق العالم وهي تعدو؛ بينما هما الاثنان يبدوان وكأنهما يمسكان بإحكام، بجسد منتصب وأيادٍ ثابتة، عنان تلك القوى الجامحة. فجأة انتهت الموسيقى بضربة جافة. شعاع من شمس شفقية دخل من النافذة المفتوحة؛ في هالته المضيئة ترقص ذرات ذهبية من الغبار وكأن الخيول السماوية للموسيقى، وقد أصبحت قصيّة، رفعت الغبار في طريق السماء الذي يقود إلى العدم والخراب.

- شوبان ـ لاحظت السيدة الفرنسية بتنفس متقطع ـ والده كان فرنسياً.

- وأمه بولونية - أجاب كونراد، ونظر إلى النافذة مائلاً برأسه - كانت من أقرباء والدتي - أضاف بعد ذلك دون أن يعير الأمر أهمية، وكأن تلك العلاقة كانت شيئاً مخجلاً.

أعار الجميع انتباهاً بالغاً، إذ أن وقع صوته الحزين كان يشبه وقع صوت المنفيين حين يتكلمون عن وطنهم، عن حنينهم. نظر الحارس الإمبراطوري أيضاً إلى صديق ابنه بانتباه وكأنه ينظر إليه للمرة الأولى. في الليل، حين بقي وحيداً مع ابنه في صالة التدخين، قال له:

- كونراد لن يكون جندياً حقيقياً أبداً.

- لماذا؟ - سأل الابن مرعوباً.

يعلم أن لدى والده الحق. هزّ الحارس الإمبراطوري كتفيه. تابع التدخين جالساً وقدماه ممدودتان صوب التشيميني وهو ينظر إلى دخان سيجاره. أجاب بيقين وتفوّق ذوي الدراية:

- لأنه مختلف.

لم يعد الوالد حيّاً ومضت سنون كثيرة إلى أن أدرك الجنرال معنى تلك العبارة.

7

يعرف المرء الحقيقة دائماً، الحقيقة الأخرى، الحقيقة المخفية خلف المظاهر، خلف الأقنعة، خلف المواقف المختلفة التي تبديها لنا الحياة. ترعرع الشابان معاً، وأقسما أمام الراية معاً، وعاشا معاً في فيينا، لأن الحارس الإمبراطوري أفلح في أن يجعل ابنه وكونراد يقضيان السنوات الأولى من الخدمة قريباً من البلاط الإمبراطوري. استأجرا شقة قريبة من حديقة شونبرون. في الطابق الأول من بيت ضيّق بواجهة رمادية. تطل نوافذ الشقة على حديقة طويلة وضيّقة ممتلئة بأشجار الخوخ: الهواء كان مثقلاً برائحة الفاكهة. تتألف الشقة من ثلاث غرف، أجرتهما إياها أرملة طبيب في الجيش صماء. استأجر كونراد بيانو، لكنه قليلاً ما يعزف عليه، وكأن لديه وجل من الموسيقى. عاشا في تلك الشقة كأخوين، وابن الحارس الإمبراطوري ارتاب بقلق أحياناً من أن يكون لدى صديقه أسرار.

كان كونراد "مختلفاً" ولم يستطع مساءلته حول أسراره. كان هادئاً دائماً. لم يناقش قط. عاش، وكأن علاقته برفاقه وحركته في العالم هي خدمة عسكرية لا تنتهي أبداً، وكأن الحياة بكاملها ليست سوى انضباط، خدمة، ليس فقط خلال النهار، إنما أيضاً في الليل. كانا ضابطين شابين، ولدى ابن الحارس الإمبراطوري أحياناً إحساس مقلق بأن كونراد يعيش كما لو كان راهباً. وكأنه لا يعيش في هذا العالم. وكأن بعد ساعات الخدمة الرسمية تبدأ عنده خدمة أخرى، أكثر تعقيداً ومثقلة أكثر بالمسؤولية؛ كمثل راهب شاب لا تشكل

الخدمة عنده ساعات الصلاة ومراسم التقوى فحسب، بل أيضاً لحظات العزلة والتأمل، وحتى لحظات الراحة. يخشى الموسيقى التي تربطه بها أواصر لا مرئية، ليس فقط على المستوى العقلي، إنما أيضاً الجسدي، وكأن المعنى العميق للموسيقى يشكل تفويضاً سامياً، شيئاً يمكن أن يحيده عن طريقه، أن يحطم شيئاً في داخله.

يركبان الخيل معاً في الأصباح في البراتر أو البكاديرو، ثم يعود كونراد بعد تأدية الخدمة إلى بيته في حي هيتزينك، وتمضي أحياناً أسابيع بكاملها دون أن يخرج في الليل. كانوا ما زالوا يستخدمون في ذلك البيت القديم الشموع والقناديل البترولية للإضاءة؛ يعود ابن الحارس الإمبراطوري دائماً تقريباً بعد منتصف الليل: قادماً من الرقص في مكان ما، من حفلة ما، ويرى من الشارع الضوء في نافذة صديقه، ضوء الشموع الخافت، غير المنتظم والاتهامي. في الإشارة المضيئة من تلك النافذة ثمّت شيء من العتاب. يعطي ابن الحارس الإمبراطوري قطعة نقدية للحوذي، يتوقف في الشارع الذي يكتنفه السكون أمام البوابة القديمة، ينزع عن يديه القفازين ويبحث عن المفتاح فيعتريه الإحساس بأنه يخدع صديقه من جديد. قادماً من العالم الخارجي، حيث تصدح الموسيقى في المطاعم، في صالونات الرقص، في صالونات مركز المدينة، مع أن الموسيقى مختلفة عن التي يفضّلها صديقه. تصدح هذه الموسيقى كي تكون الحياة أكثر بهجة، أكثر احتفالية، كي تشرق عيون السيدات، كي يتألق زهو الرجال. لهذا كله كانت تصدح الموسيقى في الأماكن التي كان ابن الحارس الإمبراطوري يرتادها ويستهلك فيها ليالي شبابه. موسيقى كونراد ليست من أجل أن ينسى الناس أشياء محددة، إنما كي توقظ العواطف، توقظ حتى الإحساس

بالإثم، وغايتها التوصل إلى أن تكون الحياة أكثر واقعية في قلب وعقل الكائنات الإنسانية. هذه الموسيقى مخيفة، فكر ابن الحارس الإمبراطوري، وبدأ يصفر بصوت خفيض وبعناد لحن فالس فييني. في تلك المرحلة كانت ألحان الفالس لموسيقار شاب اسمه شتراوس موضة في فيينا. بحث في جيبه عن المفتاح، دفع البوابة المئوية، الثقيلة والعصية على الفتح، اجتاز الرواق الفسيح الذي لا يكاد يضيئه قنديل زيت في الدهليز المقبب والذي تفوح منه رائحة العفن، ثم توقف لحظة كي ينظر إلى الحديقة التي يغطيها الثلج والمضاءة ببياض ناصع بفعل ضوء القمر، وكأنها مرسومة بطبشورة وسط مجال محدد بالأسود وخلفه الأشياء والظواهر. كل شيء بدا هادئاً. كانت فيينا نائمة. غافية بعمق تحت الثلج المتساقط. حتى الإمبراطور نائم في الهوفبورك، وخمسون مليون شخص نائم في إمبراطوريته. شعر ابن الحارس الإمبراطوري بأنه هو أيضاً له علاقة بتلك السكينة، بأنه أيضاً يساهم في السهر على أحلام وسلامة الإمبراطور والخمسين مليوناً من رعيته، حتى وإن لم يكن يفعل شيئاً سوى ارتداء بزته الرسمية بكرامة، التردد على عليّة القوم، الاستماع إلى الفالس، احتساء النبيذ الأحمر الفرنسي والتحدث مع السيدات والرجال حول شؤون ينتظرون منه التحدث فيها إليهم. شعر ابن الحارس الإمبراطوري بأنه كان يمتثل إلى أوامر عليا مُلِحّة، أوامر مكتوبة أو غير مكتوبة، وأن هذا الامتثال هو ذاته حيثما يكون، سواء في الثُكنة، في حقل الرماية أو في الصالونات؛ فهو دائماً في الخدمة. سلامته تستند على هذه القاعدة، مثل الخمسين مليون شخص: يعلم أن الإمبراطور يستلقي للنوم قبل منتصف الليل ويستيقظ عند الفجر، وأنه يجلس إلى مكتبه على ضوء شمعة في متكأ أمريكي الصنع من خشب

السوحر وأن جميع الذين أقسموا له بالوفاء يمتثلون دائماً إلى تلك الأوامر، تلك القوانين وتلك العادات التي تصون حياته. كان هذا الامتثال بالطبع شيئاً أكثر عمقاً من احترام بعض القواعد، يجب حمل الامتثال هذا في القلب: هذا هو الأهم. أن تكتنفه القناعة بأن كل شيء في مكانه. كان لهما من العمر آنذاك اثنان وعشرون عاماً، ابن الحارس الإمبراطوري وصديقه.

عاشا في فيينا وكانا ضابطين شابين. صعد ابن الحارس الإمبراطوري السلّم وهو يصفر لحن فالس بصوت خفيض. تفوح من كل البناء رائحة عفن خفيفة، الغرف، السلّم، وكذلك رائحة حلوة، رائحة مربى الفاكهة. في ذلك الشتاء تنامت الكرنفالات بسرعة جائحة خفيفة من الفرح. ثمّت رقص في كل الليالي، في الصالونات البيضاء والذهبية المضاءة باللهب المتراقص لقناديل الغاز الذي يرتجف كجناحي فراشة. أثلجت كثيراً، والحوذيون ينقلون العشاق تحت الثلج النادف دون صخب. كل فيينا كانت ترقص تحت الثلج، وفي الأصباح يذهب ابن الحارس الإمبراطوري إلى البيكاديرو القديم لكي يتأمل تمارين الفرسان الإسبان والخيول البيض الليبتزية*. ثمّت شيء حي، شبيه بأجساد الخيول والفرسان: نوع مشترك من الأناقة والنبل، إحساس بالمتعة والإيقاع ممزوج بشعور خفيف من الإثم؛ بالطريقة ذاتها التي تحدث في ضمير أي روح قديمة وجسد نبيل. يقوم بعد ذلك بمشاوير طويلة، إذ أنه كان شاباً. يتوقف أمام واجهات المتاجر في مركز المدينة في الجادة

---

* خيول أصيلة من Lipica - تلفظ ليبيتزا - في سلوفينيا. يمتزج دمها بالدم الخيول الإسبانية، النابوليتانية والعربية. معروفة بجمال لونها الأبيض، بذكائها ورشاقتها. م.

الرئيسية، حيث الشباب ينظرون إلى السيدات والآنسات؛ يتعرّف عليه الحوذيون القدماء والخدم من عمر معيّن لأنه يشبه والده. كانت فيينا مثل عائلة كبيرة، الإمبراطورية كذلك، مع الهنغاريين، الألمان، المورافيين، التشيكيين، الصرب، الكرواتيين والإيطاليين؛ ولدى الجميع في هذه العائلة الكبيرة الإحساس السري بأنه في قلب الرغبات بالمغامرة، الميل الفطري والعواطف، فإن الإمبراطور فقط هو القادر على المحافظة على النظام: الإمبراطور الذي كان في الوقت ذاته رقيباً متقاعداً وجلالته مجرد موظف وسيد عظيم "grand seigneur"، ريفي وكلي القدرة. كانت فيينا طافحة بالفرح. تُقدّم في خمارات البيرة المركزية والمقببة التي تفوح منها رائحة العفن أفضل بيرة في العالم، ومع قرع أجراس منتصف النهار تعمّ الشوارع رائحة "الغولاش" gulasch **، كل ذلك يبعث على إحساس بهيج ومرح يغمر الشوارع، يغمر النفوس وكأن سلام العالم سيدوم إلى الأبد. ترتدي السيدات قفازاتهن السوداء الجلدية وقبعات مزينة بالريش وتحت ندف الثلج تشع أنوفهن الصغيرة وعيونهن المختبئة خلف نقابهن. يشعلون قناديل الغاز في الرابعة بعد الظهر في جميع المقاهي ويبدؤون بتقديم القهوة بالقشدة، وقد شغل العسكريون والموظفون طاولاتهم المحجوزة سلفاً؛ تتوارى السيدات في عمق العربات بوجوههن المتوردة من البرد، متجهات إلى مكان العوازب المخصص، حيث تكون المدفأة الحطبية قد أوقدت: كانت آنذاك أيام الكرنفال، والحب ثار وألقى أواصره في المدينة، وكأن عملاء مؤامرة

** الغولاش: طعام هنغاري معروف في كل أوربا يُحضّر مع لحم البقر، البصل، البندورة والفليفلة.

هائلة أحاقت بكل الطبقات الاجتماعية وقد أحشت وهيجت جميع النفوس. يجتمع قبل ساعة من بدء العروض في المسرح بسرية في ميماس قصر الأمير "إيسترهازي" في مركز المدينة محبو النبيذ الحار؛ في صالونات فندق "زاخر" يبدؤون بتحضير طاولات ممثلي النبلاء؛ والفرسان البولونيين . تتجمع في الخمارات المكتظة بالدخان والهواء الفاسد التي فُتحت حديثاً للجمهور في جوار كاتدرائية "سان إستيفان" ـ يشربون خمراً نسبة الكحول فيه مرتفعة، مشارين وحزينين لمصائب وطنهم. وكان كذلك ثمّت ساعات في ذلك الشتاء في فيينا يبدو فيها الجميع سعداء. تذكر ابن الحارس الإمبراطوري كل ذلك بينما يصفر بصوت خفيض مبتسماً. شعر بحرارة المدفأة بمجرد دخوله الطابق وكأنها مصافحة أليفة. كل شيء كان رحباً في تلك المدينة، وكل شيء في مكانه، كل شيء والجميع؛ حتى النبلاء كانوا ريفيين قليلاً وحتى البوابين يحافظون ويحترمون النظام الاجتماعي بمتعة، نظام يبدو لانهائياً وفي الوقت ذاته إنسانياً. نهض الخادم الذي كان يجلس إلى جانب المدفأة، تناول معطفه، قبعته وقفازيه وباليد الأخرى أنزل عن رف التشيميني الأبيض زجاجة من النبيذ الأحمر الفرنسي الذي اعتاد ابن الحارس الإمبراطوري احتساءها كل ليلة قبل أن يهجع إلى النوم، كي يودّع الذكريات الخفيفة للنهار والليل بالطعم الثقيل لسائل "بورغونيا" الكثيف.

أخذ الخادم ـ مثلما يفعل دائماً ـ النبيذ على صينية ومشى خلفه إلى غرفة كونراد.

كانا يتحدثان أحياناً حتى الفجر في ظل تلك الغرفة، إلى أن تبرد المدفأة ويشرب ابن الحارس آخر نقطة من زجاجة بورغونيا. يتحدث

كونراد عن قراءته وابن الحارس الإمبراطوري عن تجربته في الحياة. لم يكن كونراد يملك ما يكفي من النقود لمثل هذه التجارب؛ إن وضعه العسكري هو بالنسبة له كمهنة، بزيّه الرسمي ومرتبته: مهنة مثقلة بالواجبات الدقيقة والمعقدة. فكر ابن الحارس الإمبراطوري بأن من الضروري المحافظة على صداقته وتحالفه معه ـ علاقة معقدة وهشة مثل أي علاقة إنسانية مكثفة ومثقلة بالقدرية ـ بعيداً عن الشؤون المالية، بعيداً حتى عن ظل الحسد أو الافتقار إلى الكياسة. لم يكن ذلك سهلاً. تحدثا عن كل ذلك كأخوين. توسّل ابن الحارس الإمبراطوري كونراد بنبرة متحفظة بأن يقبل بجزء من ثروته، إذ أنه غير قادر على استهلاكها لوحده. شرح له كونراد بأنه لا يستطيع قبول أي قرش من نقوده. الاثنان يعلمان أن الأمر هو هكذا: ابن الحارس الإمبراطوري لا يستطيع إعطاء نقود إلى كونراد ويرى نفسه مجبراً بسلوك تلك الحياة التي تليق بمرتبته وبكنيته؛ بينما كونراد يتناول العشاء في البيت وحيداً أيضاً: اعتاد العشاء بيضاً مخفوقاً خمس مرات في الأسبوع، وهو يتأكد شخصياً من ثيابه المغسولة في المصبغة. كل ذلك يفتقر للأهمية. ما كان يهمّه هو حماية صداقته، فوق اعتبارات النقود، حمايتها على مدى الحياة. كان كونراد يشيخ بسرعة. في سن الخامسة والعشرين احتاج إلى نظارة للقراءة. حين يصل صديقه إلى البيت في الليالي، بعد مغامراته في فيينا وفي العالم وقد انبعثت منه رائحة التبغ والعطر، وهو بمظهر المستهتر قليلاً، بهيئة المراهق الثمل بالأجواء الدنيوية؛ حينئذٍ يتحدثان بصوت خفيض خلال ساعات كمتواطئين، وكأن كونراد كان ساحراً يمكث دائماً في البيت متأملاً في فحوى قدر الأشخاص وفي الظواهر الإنسانية الزائلة، بينما خادمه يمضي في العالم جامعاً الأنباء السرية عن حياة الرجال. كونراد يقرأ كتباً مميزة بالإنكليزية حول

تـاريخ التعـايش الإنـساني وحـول التنميـة الاجتماعيـة. ابـن الحـارس الإمبراطـوري يقـرأ كتبـاً حـول الخيـول والـرحلات. وبمـا أنهمـا يحبـان بعضهما فكانا يغفران لبعضهما الخطيئة الأصلية: كونراد يغفر ثروة صديقه وابن الحارس الإمبراطوري يغفر فقر كونراد.

ذلـك "الاخـتلاف" الـذي لاحظـه الأب بينمـا كـونراد والكونتيـسة يعزفـان "بولـونيزا - فانتازيـا" هـو الـذي منـح كـونراد الهيمنـة علـى روح صديقه.

ماذا تعني هذه الهيمنة؟ السلطة الإنسانية تحمل دائماً في طياتها ازدراءً خفيفـاً لا يكـاد يـدرك لأولئـك الـذين نهـيمن عليهم. نحـن قـادرون علـى ممارسـة الـسلطة فقـط علـى النفـوس الإنـسانية إذا كنـا نعـرف الـذين يجدون أنفسهم ملزمين للخضوع لنا، إذا كنـا نفهمهم ونـزدريهم بكثير من اللباقة.

تلـك الأحاديـث الليليـة في بيـت حـي هيتزينـك تحولـت مـع الوقـت إلى أحاديث بين معلم وتلميذ وتوصلت إلى اكتساب هـذه الـصفة. كـونراد - مثل جميـع الكائنـات الإنـسانية الـذين يجـدون أنفـسهم مجبرين بـسبب ميولهم الفطرية وظروفهم إلى العزلة المبكرة - يتكلم عن العالم بسخرية مـع ازدراء خفيـف ممـزوج باهتمـام لاجدوى منـه، كمـا لـو أن مـا يحـدث يستطيع رؤيتـه في الجهـة الأخـرى، في الـضفة الأخـرى ولا يهتم بـه سـوى الأطفـال أو كائنـات أقل فطنـة. مـع ذلـك فـإن في صـوته حنينـاً مـا أيضاً: يشعر الشباب دائماً بالرغبـة والحنين لـشيء مـا، لـوطن مريب، لا مبالٍ، يبعث على الخشية، لهذا الوطن المسمى عالم. حين كان كـونراد - بنبرة ودية، لكن فوقية وسـاخرة دون أن يعطـي أهميـة للأمـر - يسخر مـن ابـن الحارس الإمبراطوري حول كل ما جربه في العالم، كان في صوته كل هذا الاختناق، هذا الظمأ الذي لا يرتوي، هذه الرغبة.

هكذا عاشا بين أوهام الشباب وهما يمثلان دوراً . كان ذلك أيضاً وظيفة . أعطى حياتهما الجديّة، التوتر والسلوك الضروري. على باب ذلك البيت في هيتزينك طرقت أيضاً أيادٍ أنثوية، برقة، بعاطفة وفرح. في احد الأيام طرقت الباب فيرونيكا، الراقصة: تذكر الجنرال ذلك الاسم وفرك عينيه وكأنه استيقظ من حلم عميق، استحضر ذكرى منسية. نعم، اسمها فيرونيكا. هناك أخرى اسمها أنجيلا، أرملة شابة لطبيب في الجيش، كانت تستمتع أكثر من أي شيء بسباق الخيل. هو كان يفضّل فيرونيكا، الراقصة. كانت تعيش في ملحق بيت قديم جداً في الشارع حيث نزل "النضوات الثلاث" في نوع من مرسم فنان لايمكن تدفئته جيداً. لم تكن قادرة على العيش في مكان آخر، إذ أنه يقدّم لها فسحة كافية لأجل تمارينها، خطواتها وقفزاتها في الهواء. كانت هذه الصالة الفسيحة مزينة بباقات من الورود الورقية المغبرة ونقوش حيوانات تركها المستأجر السابق، وهو رسّام من إيستيريا، للمالك كتعويض عن إيجار لم يدفعه. مواضيعه المفضلة كانت النعاج: نعاج كئيبة تنظر إلى الزوار من حيطان الملحق بتعابير استفسارية، بعيون فارغة ومائية. هناك كانت تعيش فيرونيكا، الراقصة، بين ستائر يعلوها الغبار وأثاث قديم محطم. ما أن تدخل الممر حتى تشعر برائحة عطر قوية من الزيت والورد، والكولونيا الفرنسية. في إحدى أماسي الصيف ذهب ثلاثتهم للعشاء معاً. تذكر الجنرال ذلك بوضوح مطلق، وكأنه ينظر إلى صورة بوساطة مكبّر. ذهبوا للعشاء في مطعم في الغابة، خارج فيينا. وصلوا بالعربة عبر غابة تتضوع بالروائح. كانت الراقصة ترتدي قبعة بأجنحة عريضة على الطريقة الفلورنسية، قفازين بيضاويين يصلان حتى المرفق، فستاناً مزنراً بالحرير الزهري وحذاء أسود أملس. كانت مكتملة حتى في افتقار الذوق. مشت مرتبكة في دروب الغابة الحصَويّة، بين الأشجار

وكأن أي خطوة دنيوية - التي تقودها إلى وجهة مادية، إلى مطعم مثلاً - ليست جديرة بقدميها. حرصت على قدميها وفخذيها بالطريقة ذاتها التي لعازفة فيولين لم تعزف قط على فيولين ستراديفاريوس* أغنية في مديح النبيذ؛ كانت تدلل تلك القطعة الفنية التي موضوعها الأساسي هو الرقص، تحدي قوانين الجاذبية وتلاشي قيود الجسد الشاقة. تناولوا العشاء في مطعم بالهواء الطلق جدرانه مغطاة بورق العنب لكرمة بريّة: وضعوا على الطاولات بعض الشموع المحميّة ببالونات من الكريستال. شربوا نبيذاً أحمر خفيفاً جداً ولم تتوقف الراقصة عن الضحك. أثناء العودة إلى البيت، بعد أن اجتازوا الغابة المضيئة بضوء القمر المكتمل، لدى صعود العربة على هضبة لمحوا فجأة المدينة المتألقة بالضوء الأبيض؛ حينئذٍ عانقت فيرونيكا الاثنين معاً بعفوية. كانت لحظة من السعادة، من اللاوعي، لحظة طافحة بالحياة. رافقا الراقصة إلى بيتها دون التفوه بكلمة، ودّعاها في الرواق المتهدم مع قبلة على اليد. فيرونيكا، وأنجيلا مع الخيول. وكل الأخريات اللواتي يضعن ورداً في شعرهن، يرقصن في دائرة تاركين وراءهن أحزمتهن، بطاقاتهن، ورودهن وقفازاتهن فحسب. تلك النسوة أخذن نشوة الحب الأول للحياة من كليهما، بكل مايعني الحب من معنى: الرغبات، الارتياب ووحشة ممزقة لشغاف القلب. في الوقت ذاته، ما يتعدى النساء والأدوار المختلفة، ما يتعدى العالم، يُستشفُ إحساس أقوى من أي شيء آخر. إحساس يعرفه الرجال فحسب. اسمه الصداقة.

---

* ستراديفاريوس، أنطونيو: 1644. 1737 صانع فيولين إيطالي. أفضل فيولين صنعهُ في كريمونا «كريمونا مدينة إيطالية مشهورة بصناعة فيولين استراديفيري». م.

8

ارتدى الجنرال ثيابه. ارتداها بمفرده. أول ما أخرج بزته الرسمية من الخزانة ونظر إليها لبعض الوقت. منذ عقد من الزمن لم يرتد تلك البزة. فتح درجاً وتناول أوسمته، تأمل الأوسمة التي كان يحتفظ بها في علبة مغلفة بالحرير الأحمر، الأبيض والأخضر. حين أمسك تلك الميداليات البرونزية، الفضية والذهبية في يده ظهرت أمام عينيه صور جسر فوق نهر الدنيبّر، عرض عسكري في فيينا، وحفل استقبال في قلعة بودا. هزّ كتفيه. ما الذي أعطته إياه الحياة؟ التزامات وغروراً. أعاد الأوسمة إلى العلبة دون أن يعطي أهمية لهذه الحركة، مثلما يعيد لاعب الورق الفيشات الملونة في نهاية اللعبة والتي لم يعد لها قيمة.

ارتدى أخيراً طقماً أسود، اختار ربطة عنق ذات خطوط بيض، مشّط شعره القصير والأشيب بمشط مبلل. كل ليلة خلال السنوات الأخيرة وهو يرتدي ذلك الطقم الأسود كعادة صارمة. اقترب من المكتب وأخرج بحركة ملتبسة ويدين مرتجفتين مفتاحاً صغيراً من حافظة نقوده وفتح درجاً طويلاً وعميقاً. أخرج من قسم سري في الدرج أشياء مختلفة: مسدساً بلجيكياً، رزمة من البطاقات المربوطة بشريط أزرق ودفتراً نحيفاً مغلّفاً بالمخمل الأصفر والذي يحمل حروفاً مذهبة مطبوعة عليه كلمة "Souvenir". ظل الدفتر لفترة من الزمن بين يديه، دفتر غلافه مربوط بشريط أزرق ومختوم بدمغة من اللون ذاته. ثم تفحّص المسدس بدقة وبحركات جديرة بخبير. كان مسدساً قديماً بست طلقات. كل شيء كان في مكانه. وبحركة ميكانيكية وضع المسدس في مكانه

وهزّ كتفيه مرة أخرى. وضع الدفتر المغلف بالمخمل الأصفر في أحد الجيوب العميقة للسترة.

اقترب من النافذة وفتح الشباك الخارجي. كانت قد أمطرت أثناء نومه. الحديقة مبللة، نسمة منعشة تسري بين الأشجار وتلتمع أوراق الموز براقة. مالت الشمس للغروب. مكث واقفاً إلى جانب النافذة دون أن يقوم بحركة ويداه معقودتان، نظر إلى المشهد: الوادي، الغابة، الطريق المائل للصفرة في العمق و بروفيل المدينة. تعرفت عيناه المعتادتان على الرؤية عن بعد على العربة التي تتقدّم ببطء على الطريق. لن يتأخر الزائر عن الوصول إلى المنزل.

نظر إلى تلك النقطة المتحركة، دون أن يتحرك بنظرة لا تعبير لها، مغلقاً إحدى عينيه مثل الصيادين حين تكون الطريدة في مرماهم.

9

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة حين خرج الجنرال من غرفته. مشى متكئاً على عصا ذات رأس من العاج، بخطوات بطيئة ومتسقة على طول الممر الذي يصل هذا الجناح وغرفه من المنزل مع الأجنحة الأخرى، الصالون، صالة الموسيقى وصالات جلوس أخرى. الجدران مغطاة ببورتريهات قديمة: بورتريهات بأطر مذهبة لأسلافه، أجداد أجداده وجداته، معارف، موظفين قدماء، رفاق من الجيش، زوار قدماء مشهورين للمنزل. كان من عادة عائلة الجنرال دعوة رسامين متجولين لقضاء فترة من الزمن في المنزل، وآخرين أكثر شهرة، مثل ذاك الذي يوقّع بحرف S وكان من براغ وقد أمضى ثمانية أعوام في المنزل في زمن جد الجنرال، راسماً جميع الذين يعبرون أمامه، حتى كبير الخدم والخيول الأكثر أصالة. أجداد أجداده كانوا ضحايا أولئك الفنانين المتجولين: كانوا يرتدون أفضل بزاتهم الرسمية وينظرون نظرة فوقية بعيون زجاجية. ثمّت أيضاً بعض البورتريهات لرجال هادئين ورزينين بعمر الجنرال، رجال بشوارب على الطريقة الهنغارية مع خصلة شعر مجعدة تتدلى فوق الجبهة، مزينين بأطقم الأحد السوداء أو البزة الرسمية. كانوا جيلاً رائعاً، فكر الجنرال وهو ينظر إلى بورتريهات الأقرباء، الأصدقاء ورفقاء والده.

كانوا جيلاً رائعاً، فكر الجنرال: رجال وحيدون قليلاً لم يستطيعوا الانسجام مع العالم؛ كانوا فخورين يعتقدون بأشياء مثل الشرف ونوعية الرجال وبالكتمان والعزلة والكلمة المعطاة، وبالنساء أيضاً. يلتزمون

الصمت حين يعانون من خديعة. يلتزم الجميع تقريباً الصمت مدى الحياة، مكرسين أنفسهم لواجباتهم وللصمت وكأنهم أقسموا على ذلك. في نهاية الممر كانت معلقة بورتريهات لأعضاء العائلة الفرنسية، سيدات عجائز بأكاليل مع شعر مبيض بالغبار، رجال مجهولون بدناء مع شعر مستعار وشفاه شبقة، أعضاء بعيدون لعائلة أمه، بورتريهات مع خلفية زرقاء، زهرية ورمادية. أشخاص مجهولون. يرتدي الأب بزته الرسمية الخاصة بالحرس الإمبراطوري. الأم مع قبعة من الريش وسوط وكأنها خيالة في سيرك. إلى جانب هذا البورتريه ثمّت فراغ على الجدار بمساحة متر مربع: بعض الخطوط الضاربة إلى الرمادي ضمن بياض في العمق تشير إلى أنه، في زمن مضى، كان هناك أيضاً إطار معلق. عبر الجنرال أمام الفراغ على الحائط بتعبير ثابت. مابعد ذلك لم يكن سوى المناظر.

في آخر الممر كانت المرضعة مرتدية السواد مع عمرة بيضاء على الرأس جديدة ومكوية حديثاً.

- هل كنت تتأمل اللوحات؟ ـ سألت.

- نعم.

- ألا تريد أن نعيده إلى مكانه؟ ـ سألت مشيرة مباشرة إلى فراغ البورتريه المفقود بنبرة الأشخاص الطاعنين في السن والذين لايعرفون الدوران حول الأمر.

- هل ما زلت تحتفظين به؟ ـ سأل الجنرال. أكدت المرضعة بإيماءة من رأسها ـ لم ـ أضاف الجنرال بعد استراحة قصيرة بصوت خفيض ـ: لم أكن أعلم بأنك ما زلت تحتفظين به. اعتقدت بأنك أحرقته.

- ليس لذلك أي معنى ـ أجابت المرضعة بصوت متقطع ـ حرق اللوحات.

- كلا ليس له أي معنى - أكد الجنرال بنبرة الثقة، النبرة التي يستخدمها في كلامه مع المرضعة فقط - ولا تبدّل شيئاً أيضا.

عادا إلى السلّم وهما ينظران إلى الأسفل، حيث خادم وبضعة خادمات يضعون وروداً في آنية من الكريستال المحجر.

كان المنزل قد بدأ يدبّ فيه النشاط في الساعات الأخيرة وكأنه آلة ميكانيكية تم تشغيلها. انبعث النشاط في الأثاث، في المقاعد والأرائك التي نزعوا عنها قماش الحماية من الغبار، وكذلك في البورتريهات المعلقة على الجدران والشمعدانات الحديدية وأشياء للزينة في الخزانات الزجاجية وعلى رف التشيميني. ثمّت أكوام من الحطب إلى جانب التشيميني مقطعة لأجل تشغيلها، لأن الليالي في نهاية الصيف تكون باردة ورطبة؛ في الفجر يكون الهواء محملاً بالبرودة وكل شيء مشبع بالبخار. تبدو الأشياء وكأنها أعادت معنى وجودها، بدت وكأنها تحاول إثبات أن كل شيء يكتسب معنى إذا كان على صلة مع الكائنات الإنسانية، إذا شارك في حياة وقدر الرجال. نظر الجنرال إلى المدخل الهائل، إلى الورود الموضوعة على الطاولة أمام التشيميني وإلى موقع الكراسي والمقاعد.

- هذا المقعد الجلدي كان إلى اليمين - لاحظ.

- تتذكر حتى هذا؟ - سألت المرضعة.

- نعم - أجاب - هناك جلس كونراد، تحت الساعة إلى جانب النار. في المركز جلست أنا أمام التشيميني في المقعد الزهري. كريستينا كانت أمامي تجلس في الكرسي التي أحضرته والدتي.

- تتذكر كل شيء بدقة - لاحظت المرضعة.

- نعم - أكد الجنرال، مستنداً على درابزين السلّم ناظراً إلى الأسفل

ـ كان في الإناء الكريستالي الأزرق أضاليا. منذ واحد وأربعين عاماً.

- تتذكر كل شيء، ما من شك في ذلك ـ كررت المرضعة خلال التنهدات.

- بالطبع أتذكر ـ قال بهدوء ـ هل وضعت الطاولة مع صحون البورسلان الفرنسية؟

- نعم، الصحون المزهرة ـ أجابت نيني.

- حسناً ـ قال محركاً رأسه بهدوء. مكثا ينظران إلى شكل صالة الطعام مع صالة الجلوس في العمق؛ الأثاث الهائل ما زال يحتفظ بذكرى تلك الساعات، تلك اللحظات: وكأنه قبل تلك الليلة منذ واحد وأربعين عاماً كان وجوده مجرد شيء ينصاع إلى قوانين الخشب، المعدن، القماش، وتلك الليلة ملأته بالمحتوى، بالحياة، وقد اكتسب معنى وجوده. وفي تلك اللحظات بدأت مرة أخرى تستعيد الحياة مثل آلة ميكانيكية تم تشغيلها، وهكذا بدآ هما أيضاً تذكّر تلك الليلة ـ ما الذي ستقدمينه إلى ضيفك؟

- سمك الترويت ـ أجابت نيني ـ حساء وترويت: لحماً مطبوخاً قليلاً وسلطة. دجاجاً غينياً. مثلجات مخفوقة. منذ عشر سنوات لم يفعل ذلك الطباخ. أعتقد بأنه سيفلح ـ قالت مع قليل من القلق.

- راقبيه أنت، هكذا سيفلح. في تلك المرة قدمتِ أيضاً سرطانات ـ قال بصوت خفيض وكأنه يكلّم نفسه فقط.

- نعم ـ أجابت المرضعة بهدوء ـ كانت كريستينا مولعة بالسرطان وبأي طريقة يُحضّر بها. آنذاك كان ما يزال سرطانات في النهر. لم تعد متوافرة فيه. لم يتسنَ لي الوقت لطلب إحضارها من المدينة.

- اهتمي بالنبيذ ـ قال الجنرال بنبرة خفيضة وسريّة. هذه النبرة جعلت

المرضعة تقترب محنية رأسها بالثقة الخاصة بالخادمات اللواتي أصبحن أعضاء في العائلة تقريباً، لكي تسمع بشكل أفضل تلك الكلمات. اطلبي أن يأتوا لنا بالبومارد من عام ثمانية وتسعين (1898 م.) والشابليز من أجل السمك. وزجاجة من "الموم" القديم واحدة من تلك الزجاجات الكبيرة. هل تتذكرين موضعها؟

- نعم - أجابت المرضعة مفكرة - لم يبق منه سوى المز. كريستينا كانت تفضّل الوسط.

- كانت تشرب دائماً كأساً واحداً - أضاف الجنرال - برفقة اللحم. لم تكن تعجبها الشمبانيا.

- ماذا تريد من هذا الرجل؟ - سألت المرضعة فجأة.

- الحقيقة - أجاب الجنرال.

- أنت تعرف الحقيقة جيداً.

- لا أعرفها - قال بصوت مرتفع دون أن يعير اهتماماً للخدم الذين توقفوا عن وضع الزهور ونظروا إلى الأعلى. ثم عادوا وغضوا النظر مباشرة بحركة ميكانيكية متابعين عملهم - الحقيقة هي تماماً التي لا أعرفها.

- لكنك تعرف الوقائع - لاحظت المرضعة بنبرة قاطعة وعدوانية تقريباً.

- الوقائع ليست هي نفسها الحقيقة - أجاب الجنرال - الوقائع هي تفاصيل فحسب. حتى كريستينا لم تكن تعرف الحقيقة. ربما يعرفها كونراد. الآن سأنزعها منه - قال بهدوء تام.

- أي شيء؟ - سألت المرضعة.

- الحقيقة - أجاب بإيجاز، ثم صمت. حين ذهب الخادم والخادمات

من بهو المنزل وبقيا معاً في الأعلى لوحدهما، وقفت المرضعة إلى جانب الجنرال مستندة على الدرابزين وكأنهما يتأملان منظراً طبيعياً في الجبل. استدارت صوب صالة الطعام حيث كان الثلاثة يجلسون أمام التشيميني وقالت له:

- يجب أن أقول لك شيئاً. حين دخلت كريستينا حالة الاحتضار نادت عليك أنت.

- نعم ـ قال الجنرال ـ وأنا كنت هنا.

- كنت هنا، لكنك لم تكن. كنت بعيداً وكأنك على سفر. كنت في غرفتك، بينما هي تحتضر. في الفجر كنت أنا فقط إلى جانبها. لقد نادت عليك. أقول لك ذلك كي تعلم، لكي لا تنسى تلك الليلة.

صمت الجنرال.

- أعتقد بأنه وصل ـ قال ووقف منتصباً ـ اهتمي بالنبيذ يا نيني، اهتمي بكل شيء.

سمع طقطقة حصى الطريق في المدخل تحت عجلات عربة الخيل. ترك الجنرال العصا مستندة على درابزين السلّم وبدأ بالهبوط دون مساعدة، كي يستقبل الضيف. توقف لحظة.

- الشموع ـ قال ـ هل تتذكرين الشموع؟ تلك الشموع الزرقاء. ضعيها على الطاولة، إذا كان ما زال لدينا منها. أشعليها كي تبقى مشتعلة خلال العشاء.

- أنا لا أتذكرها ـ اعترفت المرضعة.

- أنا نعم ـ أصرّ بعناد.

هبط السلّم بظهر مستقيم، مرتدياً السواد بخطى العجوز مع قليل من

الصرامة، وكأنه في حفل مراسم. في تلك اللحظة انفتح الباب وظهر على العتبة خلف الخادم رجل عجوز جداً.

- أترى، لقد عدت. قال الضيف بصوت خفيض.

- لم أرتب يوماً بذلك. أجاب الجنرال بصوت خفيض أيضاً، مبتسماً. تصافحا بتهذيب جم.

10

اقتربا من التشيميني ونظرا إلى بعضهما بانتباه، نظرة خبيرين، مغمضين عيونهما نصف إغماضة مثل قصيري النظر أمام ضوء بارد وبرّاق لمصباح على الحائط.

كونراد يفوق الجنرال عمراً ببضع شهور: لقد أكمل خمسة وسبعين عاماً في الربيع الماضي. تأمل العجوزان بعضهما بعيون خبيرة، متبنين السلوك الذي اعتاد الأشخاص المسنون اتخاذه عند تفحّص الظواهر الجسدية: بانتباه شديد، ممعنين النظر في ما هو جوهري، في الدلائل الأخيرة على الحياة، في بارقة أمل العيش التي ما زالت تنعكس في وجهيهما وفي وضعية جسديهما.

- كلا - قال كونراد بجدية - لم نعد شباباً.

الاثنان فكرا بشكل مماثل، بالمفاجأة، بالغيرة والفرح، وأن الآخر أيضاً اجتاز الاختبار: واحد وأربعون عاماً الأخيرة، زمن الفراق - الزمن الذي مضى دون أن يريا بعضهما، مع أنهما فكرا ببعضهما كل يوم، كل ساعة - لم تستطع التغلب على أي منهما. لقد قاومنا، فكر الجنرال. فكر الضيف (برضا يعود إلى نتيجة الاختبار الفيزيائي الذي امتزج ببعض الخيبة وبعض الخبث: بالخيبة لأن الآخر بدا سليماً كشجرة بلوط، وبالخبث لأنه عاد وهو في كامل حيويته وقوته): "لقد كان ينتظرني، لذا حافظ على كامل طاقته".

شعر الاثنان بأن زمن الانتظار خلال العقود الأخيرة أعطاهما القوة لأجل العيش. مثلما يكرر أحد ما التمرين ذاته طوال الحياة. كونراد عرف بأنه سيعود، والجنرال عرف بأن تلك اللحظة ستحين يوماً ما. هذا ما جعلهما يحافظان على البقاء أحياء.

كان كونراد شاحباً، مثلما كان في طفولته وشبابه. وكان من الواضح بأنه يتابع حياته مغلقاً على نفسه دون الخروج إلى الهواء الطلق. هو أيضاً كان يرتدي طقماً، رصيناً، ناعماً وأنيقاً. يبدو أنه أصبح ثرياً، فكر الجنرال. كانا يتفحصان بعضهما خلال دقائق طويلة دون التفوه بكلمة. ثم جاء الخادم ومعه فيرموت وخمر.

- من أين أنت قادم؟ ـ سأل الجنرال.

- من لندن.

- هل تعيش هناك؟

- قريباً من المدينة. لدي بيت صغير في الريف، في الضواحي. بقيت هناك حين عدت من المناطق الاستوائية.

- في أي مكان كنت من المناطق الاستوائية؟

- في سنغافورة ـ قال ورفع يده راسماً نقطة غير محددة في الهواء وكأنه يريد الإشارة إلى المكان في الكون ،إلى حيث كان يعيش ـ على الأقل في السنوات الأخيرة. قبل ذلك كنت أعيش في الداخل، في شبه الجزيرة بين الماليزيين*.

- يقولون ـ لاحظ الجنرال، رافعاً كأس الفيرموت صوب الضوء مرحباً بالآخر أن المناطق الاستوائية تُضعف المرء وتبعث فيه الشيخوخة.

- مريعة ـ أجاب كونراد ـ تأخذ من عمرك عشر سنوات.

- لا يبدو عليك ذلك. أهلاً وسهلاً.

شربا الكأسين حتى الثُمالة، ثم جلسا.

- لا يبدو عليّ ذلك؟ ـ سأل الضيف بعد جلوسه على المقعد إلى جانب التشيميني تحت ساعة الحائط. راقب الجنرال حركات الآخر بانتباه شديد. في اللحظة التي جلس فيها صديقه القديم في مكانه (المقعد ذاته

---

* سنغافورة انفصلت عن ماليزيا عام 1965. م.

الذي جلس عليه قبل واحد وأربعين عاماً خلت، وكأنه يمتثل، دون قصد، إلى جاذبية المكان) اختلج برضا. شعر كصياد أبصر طريدته وقد سقطت في الشرك، في الشرك الذي تجنبته حتى ذلك الحين. في تلك اللحظة الجميع وكل شيء كان في مكانه ـ المناطق الاستوائية مريعة ـ كرر كونراد ـ أناس مثلنا ليسوا قادرين على تحمّل ذلك. تُضعف أعضاء الجسد وتحرق الخلايا. المناطق الاستوائية تقتل شيئاً في داخلنا.

- هل ذهبت إلى المناطق الاستوائية كي تقتل شيئاً في داخلك؟ ـ سأل الجنرال بصوت حيادي، دون أن يعير الجملة اهتماماً.

نطق بالسؤال بنبرة المحادثة اللطيفة. جلس هو أيضاً أمام التشيميني، في المقعد القديم الذي كان أعضاء عائلته يطلقون عليه "المقعد الفلورنسي". كان هذا هو مكانه منذ واحد وأربعين عاماً، حين كان يجلس قبل وبعد العشاء مع كريستينا وكونراد للتحدث في الصالون. بعد أن جلسا نظر كلاهما إلى المقعد الثالث، الفارغ والمنجد بالحرير الفرنسي.

- نعم ـ أجاب كونراد بهدوء شديد.

- وهل حصلت على ذلك؟

- لقد أصبحت عجوزاً ـ أجاب ناظراً إلى النار. لم يجب على السؤال. مكثا جالسين هكذا، دون التفوه بكلمة وهما ينظران إلى النار إلى أن دخل الخادم لإخطارهما بأن العشاء أصبح جاهزاً على الطاولة.

11

- هكذا هو الأمر ـ قال كونراد بعد أن انتبه إلى الترويت ـ في البداية تعتقد بأنك ستعتاد ـ قصد المنطقة الاستوائية ـ كنت ماأزال شاباً حين وصلت، أنت تتذكر أيضاً. كنت في الثانية والثلاثين من العمر. ذهبت مباشرة إلى المستنقعات. يعيش الناس هناك في بيوت سطوحها من الصفيح. لم أكن أملك نقوداً. الجالية المستعمرة دفعت لي كل شيء. في الليالي حين تحاول النوم تشعر وكأنك مستلق في ضباب رطب. في الأصباح يغدو ذلك الضباب أكثر كثافة وأكثر حرارة. مع مرور الزمن كل شيء يصبح سيّان عندك. الجميع هناك يشربون الكحول، ولدى الجميع عيون مخضبة بالاحمرار. تعتقد خلال السنة الأولى بأنك ستموت قريباً. خلال السنة الثالثة تنتبه إلى أنك لست نفسك وكأن إيقاعك في الحياة قد تغيّر. تعيش بكثافة أكثر، بسرعة أكثر، شيء ما يحترق في داخلك، قلبك ينبض بشكل آخر، وفي الوقت ذاته كل شيء بالنسبة لك سيّان. كل شيء سيّان تماماً، وهذا يدوم شهوراً وشهور. ثم تأتي لحظة يبدأ فيها عدم إدراكك ما يجري من حولك. تلك اللحظة يمكن أن تأتيك بعد أن تقضي خمس سنوات أو خلال الأشهر الأولى. إنها لحظة نوبات الحنق. كثير من الناس يقتلون في هذه اللحظات، أو ينتحرون.

- حتى الإنكليز ـ سأل الجنرال.

- أقل، مع ذلك هم أيضاً يصابون بهذه الحمى، بهذا الغضب، هذا المرض الذي لا ينتشر بسبب أي جرثومة بشكل ملموس. إنني على قناعة بأن الأمر يتعلق بمرض أصله ما زال غير معروف حتى الآن. ربما يكمن السبب في الماء. أو في النباتات. أو في صبابات النساء الماليزيات. لن يصل

المرء إلى الاعتياد على النساء الماليزيات. بعضهن فائقات الجمال. يبتسمن بلا انقطاع، وثمّت شيء من العذوبة في سحناتهن، في حركاتهن، في ابتساماتهن، في عاداتهن، في طريقة خدمتهن على الطاولة وفي السرير... دون أن تتوصل إلى الاعتياد عليهن. البريطانيون يحمون أنفسهم من كل ذلك. يأخذون بلدهم معهم في حقائبهم. يأخذون معهم اعتزازهم المفرط، عزلتهم، تربيتهم، ملاعب الغولف والتنس، الويسكي والسموكينغ الذي يرتدونه ليلاً في بيوتهم ذات السطوح الصفيحية وسط المستنقعات الموحلة، حيث يعيشون. طبعاً ليس الجميع هم الذين يسلكون هذا السلوك. ذلك مجرد خرافة. تتحول الأغلبية إلى حيوانات بعد أربع أو خمس سنوات مثل الآخرين، مثل البلجيكيين، الفرنسيين، الهولنديين. تلتهم المنطقة الاستوائية تربيتهم المدرسية مثلما يلتهم البرص الجلد. المنطقة الاستوائية تلتهم التربية المكتسبة في كامبريدج وأوكسفورد. عليك أن تعلم بأن جميع الإنكليز الذين قضوا زمناً معيّناً في المنطقة الاستوائية هم مشبوهون في بلدانهم ذاتها. إنهم جديرون بالإعجاب والاحترام ،لكنهم أيضاً مشبوهون. من المؤكد بأنه في ملفاتهم السريّة تدرج كلمة "منطقة استوائية". جميع الذين أمضوا زمناً محدداً في المنطقة الاستوائية هم مشبوهون، مع أنهم حافظوا على عادة لعب الغولف أو التنس، مع أنهم يشربون الويسكي مع عليّة القوم في سنغافورة، مع أنهم يحضرون حفلات الحاكم وهم يرتدون السموكينغ أو بزاتهم الرسمية الحافلة بالأوسمة: جميعهم مشبوهون. لمجرّد أنهم عاشوا في المنطقة الاستوائية. لمجرّد نجاتهم من هذه العدوى الرهيبة والتي لاشبيه لها وهي لها أيضاً جاذبيتها مثل أي خطر مميت. "المنطقة الاستوائية" هي مرض في حد ذاتها. أمراض المنطقة الاستوائية تُشفى مع

مرور الزمن، لكن مرض "المنطقة الاستوائية" غير قابل للشفاء أبداً.

- أفهم. قال الجنرال. هل أصبت أنت أيضاً بالعدوى؟

- جميعنا أصبنا بالعدوى. أجاب الضيف بينما يتذوّق الشابليز وقد أمال رأسه إلى الخلف راشفاً النبيذ بجرعات صغيرة كخبير حقيقي. الذين يشربون فحسب، ينجون بسهولة أكثر. العواطف المخفية تقتات من حياة الأشخاص، تختبئ في داخلها مثلما تختبئ الأعاصير التيفونية* خلف المستنقعات، خلف الجبال والغابات. كل أنواع العواطف. لذا في إنكلترا كل الذين يعودون من المنطقة الاستوائية مشبوهين. لا يعرف المرء ما الذي يخفونه في دمهم، في قلوبهم وفي أعصابهم. من الواضح أنهم لم يعودوا مجرّد أوروبيين. ليس في كل شيء. عبثاً كان اشتراكهم في مجلات أوروبية وقراءة الكتب الأوروبية وسط تلك المستنقعات الموحلة؛ من العبث تشربهم الأفكار والمثاليات الأوروبية من السنوات الأخيرة أو من القرون الأخيرة. من العبث المحافظة على نوعية التربية والتهذيب التي نحاول نحن الذين عشنا في المنطقة الاستوائية احترامها أمام أمثالنا من الرجال البيض، والكحوليون يحاولون بالطريقة ذاتها احترام قواعد السلوك في المجتمع ويصبحون متوترين، شديدي التوتر، لكي لا يلاحظ أحد ما هم عليه، ويظهرون بكثير من اللطف، من التهذيب والتربية الحسنة مع ذلك في دخيلة أنفسهم فإنهم مختلفون جداً.

- إذن. قال الجنرال رافعاً كأس النبيذ الأبيض صوب الضوء. ماذا يوجد في دخيلتك؟ بما أن الآخر صمت، أضاف -: أتصور بأنك جئت هذه الليلة لكي تحكي لي عن ذلك.

كانا يجلسان إلى الطاولة الطويلة في صالة الطعام، حيث لم يدخلها

---

* تيفون: إعصار آسيوي يهب في المناطق الاستوائية. م.

أي ضيف منذ وفاة كريستينا. المكان الذي لم يأكل فيه أحد منذ عقود يشبه المتحف، حافل بالأثاث والأشياء كشهود على حقب عبرت. الجدران مكسوّة بخشب جاؤوا به من فرنسا، الأثاث من فرساي. هما يجلسان في طرف الطاولة الطويلة المغطاة بغطاء أبيض وفي الوسط آنية من الكريستال المحجّر فيه أوركيديا. الآنية محاطة بأربعة أعمال فنية من مصنع البورسلان في سيفريس*، أربعة تماثيل طافحة بالرشاقة والفن والتي تمثّل الجهات الأربع، الشمال، الجنوب، الشرق، الغرب. أمام الجنرال رمز الغرب، أمام كونراد رمز الشرق: التمثال الصغير يمثّل مسلماً مبتسماً مع جمله ونخلته.

فوق الطاولة مجموعة من الشمعدانات البورسلانية بشموع ثخينة وزرقاء كالتي في الكنائس. فقط الزوايا الأربع من الصالة مضاءة بأضواء غير مباشرة. الشعلة المرتفعة للشموع تتأرجح دون أن تبدد الظلال في صالة الطعام. التشيميني من الرخام الرمادي، لهب الحطب فيه مخضّب بالأصفر، الأحمر والأسود. النوافذ الهائلة مازالت مفتوحة جزئياً مع الستائر الحريرية الرمادية نصف المنسدلة. تيار الليل الصيفي يقتحم مرة تلو الأخرى نوافذ صالة الطعام؛ عبر الستائر الحريرية الناعمة يمكن رؤية المشهد المضاء بأشعة القمر مع الأضواء المتلألئة للمدينة الصغيرة في البعيد.

في مركز الطاولة الطويلة المزينة بالورود والمضاءة بالشموع يوجد كرسي آخر منجّد ظهره متجه إلى التشيميني. كان ذلك هو مكان كريستينا، زوجة الجنرال. أمام الصحون ولوازم المائدة الغائبة يوجد

---

* Sévres: مدينة فرنسية فيها المنوفاكتورة الملكية للبورسلان تأسست عام 1756. متحف وطني للبورسلان. م.

التمثال البورسلاني الذي يمثّل الجنوب: أسد وفيل ورجل بسحنة غامقة وطربان يخفر شيئاً ما، جميعهم يكتنفهم الهدوء والسكينة في أرض ضئيلة كراحة اليد. رئيس الخدم يرتدي سموكينغ أسود يقف ثابتاً بلا حركة في العمق إلى جانب طاولة الخدمة، موجهاً بالنظر الخدم الذين يخدمون المائدة وهم يرتدون الزيّ الأسود الموحد. لقد أدخلت هذه العادة أم الجنرال، وفي كل مرة يتناولون العشاء في صالة الطعام هذه - حيث الأثاث، الصحون، لوازم المائدة المذهبة، كؤوس وأكواب كريستالية، وحتى الخشب الذي يغطي الجدران أحضرتها من بلدها - تطلب من الخدم ارتداء هذا الزّي، ويخدمون هكذا، حسب العادات القديمة. كان الصمت يخيّم في صالة الطعام إلى درجة سماع طقطقة الخشب المحترق في التشيميني. الاثنان يتكلمان بصوت خفيض، لكن يسمعان بعضهما. تُرجع الجدران المغطاة بخشب قديم صدى الكلمات الملفوظة بصوت منخفض كما يُرجع خشب الآلة الموسيقية أصوات الأوتار.

- ليس الأمر كذلك - قال كونراد بعد تناول الطعام والتأمل خلال فترة طويلة - جئت لأنني كنت في فيينا.

كان يأكل بشيء من النهم، بحركات مهذّبة، لكن بالشراهة النمطية لدى الأشخاص الطاعنين في السن. أسند الشوكة على الصحن، انحنى قليلاً إلى الأمام وقال لمضيفه الجالس بعيداً عنه صارخاً تقريباً:

- جئت لأنني أردت رؤيتك ثانية. ألا يبدو لك ذلك طبيعياً؟

- ما من شيء أكثر طبيعية - أجاب الجنرال بكياسة - هكذا إذن، كنت في فيينا. يجب أن تكون تجربة مهمة بالنسبة لك بعد أن تعرفت على المنطقة الاستوائية وعانيت من الشوق. أمنذ فترة طويلة لم تأت فيها إلى فيينا؟

بدا السؤال مهذباً، دون أن ينمّ عن أدنى دلالة على السخرية في صوته. نظر إلى الضيف بريبة من الطرف المقابل للطاولة. يبدوان حائرين قليلاً: شخصان عجوزان، الواحد منهما بعيد عن الآخر في تلك الصالة الهائلة.

- منذ زمن طويل - أجاب - منذ أربعين عاماً، آنذاك... - قال بنبرة تنطوي على عدم الاطمئنان وصمت بشكل غريزي، مرتبكاً قليلاً - آنذاك عرجّت على فيينا في طريقي إلى سنغافورة.

- أفهم - قال الجنرال - ما الذي رأيته هذه المرة في فيينا؟

- التغيرات - أجاب كونراد - في عمري وفي ظروفي لم أعد أرى سوى التغيرات. من المؤكد أيضاً بأن أربعين عاماً مضت دون أن أطأ القارة الأوروبية. قضيت فقط بضع ساعات في مرافئ فرنسية مبحراً من سنغافورة إلى لندن. أردت أن أعود لأرى فيينا. وأيضاً هذا البيت.

- هل جئت حاملاً هذه الفكرة؟ سأل الجنرال - أن ترى فيينا وهذا البيت؟ أم أن لديك أيضاً عملاً لإنجازه في القارة؟

- ليس لدي أي عمل أنجزه - أجاب - لي ثلاثة وسبعون عاماً من العمر، مثلك. لن أتأخر كثيراً كي أموت. لذا شرعت بهذه الرحلة، لذا جئت إلى هنا.

- يقولون أنه في هذا العمر يعيش المرء حتى يشعر بالتعب - أجابه الجنرال بنبرة مهذبة وواعدة - ألا تعتقد ذلك؟

- لقد أصبحت تعباً - قال الضيف دون أي تبدل في النبرة وبصوت لا مبالٍ - فيينا - تابع - فيينا كانت بالنسبة لي كمعيار نغم العالم. لفظُ كلمة "فيينا" كان دائماً مثل جعل معيار النغم يصدر نغمة ثم ملاحظة ما الذي فهمه مخاطبي من وقعها. هكذا كنت أختبر الناس. لا يعنون لي شيئاً أولئك الذين لم يجيبوا جيداً. لأن فيينا لم تكن مجرد مدينة بالنسبة لي، إنما أيضاً نغمة: نغمة تصدح في الروح إلى الأبد أو لا تصدح

أبداً. فيينا كانت هي الأكثر روعة في حياتي. أنا كنت فقيراً، لكني لم أكن وحيداً، كان لي صديق. أيضاً فيينا كانت مثل صديق. كنت أسمع صوتها ونغمها حين تمطر في المنطقة الاستوائية. أيضاً في لحظات أخرى. أحياناً في وسط الغابة أتذكر رائحة العفن في دهليز البيت في حي هيتزينك. في فيينا، الموسيقى وكل ما أحببت، في حجارتها، في النظرات وفي قيم الناس السلوكية، كل ذلك نبض بالحياة كشغف مطهر للقلب الإنساني. أنت تعلم، حين لم تعد العواطف تؤلم. فيينا خلال الشتاء وخلال الربيع. النزهات في حديقة شونبرون. الضوء الضارب للزرقة في الأكاديمية مع سلّمها الأبيض الكبير وذاك التمثال الباروكي. ركوب الخيل في الأصباح في البراتر. الخيول البيض من المدرسة الإسبانية. كل ذلك تذكرته تماماً وأردت العودة لأراه. قال بصوت خفيض وخجل تقريباً.

- وما الذي وجدته بعد واحد وأربعين عاماً؟. سأل الجنرال مرة أخرى.

- مدينة. أجاب كونراد هازاً كتفيه. مدينة طافحة بالتغيرات.

- هنا. لاحظ الجنرال. لن يخيب أملك. هنا التغيرات قليلة جداً.

- هل سافرت في السنوات الأخيرة؟

- قليلاً جداً. أجاب الجنرال ناظراً إلى شعلة إحدى الشموع. فقط ما اقتضته واجبات الخدمة. ثمّت حقبة فكرت فيها بترك الخدمة، مثلما فعلت أنت. هناك لحظة فكرت بجديّة في ذلك. ظننت أنه عليّ أن أجوب العالم وأتعرف على أشياء أكثر، البحث عن لقاء شيء أو أحد. لم ينظرا إلى بعضهما: الضيف يحدّق في كأسه الكريستالي المتلئ بالنبيذ الأبيض، والجنرال في شعلة الشمعة. غيّرت رأيي وبقيت. أنت تعلم، الخدمة. يصبح المرء صارماً ومكابراً. كنت قد وعدت والدي بأن أكمل فترة الخدمة. لذا بقيت. وصحيح أيضاً بأنني تقاعدت باكراً. كنت في الخمسين من عمري حين كُلفت بقيادة الجيش. لقد اعتبرت نفسي فتياً جداً لمثل هذا الموقع. حينئذٍ قدمت استقالتي. لقد تفهموا ذلك

وقبلوا استقالتي. في جميع الأحوال ـ أضاف طالباً الخادم كي يقدّم له مزيداً من النبيذ الأحمر ـ كان زمنٌ الخدمة فيه ليست أي درب مفروش بالورود. كان زمن الثورة. زمن التغيرات.

- نعم ـ أجاب الضيف ـ سمعت الحديث حول ذلك.

- سمعته فقط؟ نحن عشناه ـ قال بنبرة صارمة.

- حسناً، لم أسمع فقط ـ قال الآخر ـ كان ذلك في العام سبعة عشر (1917 م.) حين عدت إلى المنطقة الاستوائية للمرة الثانية. كنت أعمل في المستنقعات مع عمال صينيين وماليزيين. الصينيون هم الأفضل. كل ما يكسبونه يقامرون به، لكنهم الأفضل. كنا نعيش في الداخل وسط الغابات. لم يكن ثمّت هاتف. لم يكن هناك راديو. العالم في حرب دائرة. آنذاك كنت أحمل الجنسية البريطانية، لكنهم تفهموا بأنني لا أستطيع محاربة البلد الذي ولدت فيه. هم أدركوا هذه الأشياء. هكذا سمحوا لي بالعودة إلى المنطقة الاستوائية. لم نكن نعرف أي شيء حول أي شيء، والعمال أقل من ذلك. مع ذلك ،في أحد الأيام، هناك وسط الغابات، من دون راديو أو جرائد، دون أخبار عن العالم منذ أسابيع، توقفوا عن العمل، في الساعة الثانية عشرة ظهراً دون أي سبب. لم يكن قد تبدل شيء في محيطهم، كل شيء كان كما كان، ظروف العمل، الانضباط، كل شيء استمر كما كان، الطعام أيضاً. لم يكن سيئاً ولا جيداً. كل شيء كان كما يمكن أن يكون. كما يجب أن يكون. ثم في أحد الأيام، في عام سبعة عشر، في منتصف النهار، قالوا بأنهم لن يعملوا بعد الآن. خرجوا من الغابة، أربعة آلاف عامل، خاضوا في الوحل حتى الخصر بصدور عارية؛ ألقوا بأدواتهم على الأرض، الفأس، المجرفة وقالوا هذا يكفي. بدؤوا بالمطالبة بأشياء. طالبوا بنزع حق العقاب الجسدي من المالكين. أرادوا رفع الأجور. طالبوا

باستراحة عمل أطول. لم يكن مفهوماً ما جرى لهم. أربعة آلاف عامل تحولوا إلى أربعة آلاف شيطان أصفر وأسمر أمام عيني. بعد الظهر أحضرت حصاني وذهبت إلى سنغافورة. هناك عرفت. كنت أول من عرف في كل شبه الجزيرة.

- ماذا عرفت؟ - سأل الجنرال منحنياً إلى الأمام.

- عرفت بأن الثورة قد انفجرت في روسيا. رجل، لم أكن أعرف في تلك اللحظة سوى أن اسمه لينين، قد عاد إلى بلده في عربة قطار مصفحة، حاملاً الأفكار البولشفية في حقيبته. في لندن عرفوا أيضاً في اليوم ذاته مثل عمالي، دون هاتف أو راديو في وسط الغابة بين المستنقعات. كان شيء غير مفهوم. فيما بعد أدركت الأمر. يعلم المرء دائماً بما يهتم به؛ دون أي جهاز، دون هاتف، دون أي شيء.

- هل تعتقد ذلك؟ - سأل الجنرال.

- أنا أعلم - أجاب بهدوء - متى توفيت كريستينا؟ - سأل فجأة.

- كيف تعرف أن كريستينا توفيت؟ - سأل الجنرال بنبرة حيادية - كنت تعيش في المنطقة الاستوائية، لم تأت إلى أوروبا خلال واحد وأربعين عاماً. هل أحسست بذلك بالطريقة ذاتها التي شعر بها العمال بالثورة؟

- هل أحسست بذلك؟ - سأل الضيف - ربما. فهي ليست جالسة هنا معنا. في أي مكان آخر يمكن أن تكون؟ في القبر فقط.

- نعم - قال الجنرال - إنها مدفونة في الحديقة قرب المشتى، مثلما رغبت.

- هل توفيت منذ زمن طويل؟

- بعد ثماني سنوات من رحيلك.

- ثماني سنوات بعد... كرز الضيف؛ فمه شاحب وأسنانه الاصطناعية البيضاء تتحرك وكأنه يعدّ أو يمضغ شيئاً ما. لقد توفيت إذن عن ثمانية وعشرين عاماً. أخذ يعدّ بصوت منخفض. لو عاشت لكان عمرها الآن واحداً وستين عاماً.

- نعم، لكانت سيدة مسنة، عجوزاً مثلنا تقريباً.

- ما الذي أصابها؟

- قالوا بأنها توفيت بسبب فقر دم خطير. إنه مرض نادر جداً.

- ليس نادراً جداً. أوضح كونراد وكأنه خبير. إنه مرض شائع جداً في المنطقة الاستوائية. عند تغيّر شروط الحياة فإن أعضاء الجسم ترتكس بهذا الشكل.

- هذا ممكن. أجاب الجنرال. يمكن أن يكون مرضاً شائعاً أيضاً في أوروبا. في حال تبدلت شروط الحياة. لا أعلم، لا أفهم كثيراً في مثل هذه الأمور.

- ولا أنا كذلك. لكن الذي أعرفه هو أنه في المنطقة الاستوائية يحدث دائماً شيء للجسد. يصبح المرء طبيباً دجالاً. جميع الماليزيين أطباء دجالون. توفيت إذن في عام 1908. قال بعدئذٍ دون أن يرفع صوته وكأنه يقوم بالعد ليعرف نتيجة عملية حسابية. هل كنت ما زلت في الخدمة؟

- نعم، كنت في الخدمة حتى إلى ما بعد الحرب.

- كيف كانت؟

- الحرب؟. سأل الجنرال ناظراً إلى ضيفه، محدقاً بعينين حسيرتين. كانت مريعة، مثل المنطقة الاستوائية. خاصة في الشتاء الأخير، في الشمال. الحياة هنا في أوروبا أيضاً طافحة بالمخاطر. أضاف الجنرال مبتسماً.

- مخاطر؟ ربما كان هناك مخاطر. أجاب الضيف موافقاً بحركة

من رأسه ـ صدقني، أحياناً كنت أتألم لعدم وجودي هنا، حيث كنتم تقاتلون. حتى أنني فكرت بالعودة لأنخرط في الجيش.

- هذا ـ قاطعه الجنرال دون أن يرفع صوته، بتهذيب، لكن بحزم ـ فكر به أيضاً آخرون من الكتيبة. لكنك لم تأت. كان لديك أمور أخرى تقوم بها ـ لاحظ بحزم.

- كنت مواطناً بريطانياً ـ كرر كونراد منزعجاً قليلاً ـ لايستطيع المرء تبديل وطنه كل عقد من الزمن.

- كلا، لا يستطيع ـ كرر الجنرال مقتنعاً ـ أعتقد أن المرء لايستطيع تبديل وطنه ولو لمرة واحدة، يستطيع فقط تبديل الأوراق الثبوتية. ألا تعتقد ذلك ؟

- وطني ـ شرح الضيف ـ تخلى عن وجوده. تحلل. وطني كان بولونيا، فيينا، هذا البيت والثُكنة العسكرية في المدينة، غاليسيا وشوبان. ما الذي تبقى من كل ذلك؟ إن الذي حافظ على كل شيء موحداً هو هذا الملاط السري الذي لم يعد موجوداً. كل شيء تهشّم، سقط شظايا. وطني كان إحساساً. هذا الإحساس مجروح. يجب الرحيل في لحظات كهذه إلى المنطقة الاستوائية أو حتى أبعد من ذلك.

- أبعد؟ إلى أين؟ ـ سأل الجنرال بفتور.

- أبعد في الزمن.

- هذا النبيذ ـ قال الجنرال رافعاً كأس نبيذه الأحمر، الأسود تقريباً. تعرفه جيداً. إنه من عام ستة وثمانين (1886 م.)، الذي أقسمنا فيه أمام الراية. والدي عبأ هذا النبيذ من إحدى مغارات الميماس لكي تبقى ذكرى ذلك اليوم حيّة. منذ سنوات طويلة خلت، حياة تقريباً. النبيذ هو الآن معتّق.

- الذي أقسمنا عليه لم يعد موجوداً . قال الضيف بجدية تامة، رافعاً كأسه . لقد مات الجميع، رحل الجميع، الجميع خان ماأقسمنا عليه. كان ثمّت عالم يستحق العيش والموت لأجله. ذلك العالم مات. أنا ليس لدي أية علاقة مع الجديد. هذا كل مايمكنني قوله.

- بالنسبة لي ذلك العالم ما زال حياً، مع أنه غير موجود في الواقع. ما زال حياً بالقسم الذي قمت به. هذا كل ما يمكنني أنا قوله.

- أنت مازلت مستمراً في كونك جندياً . لاحظ الضيف.

رفعا كأسيهما في نخب بعضهما، الواحد بعيد عن الآخر، واحتسيا النبيذ الأحمر دون التفوه بكلمة.

12

- حين ذهبت - تابع الجنرال بنبرة ودية، وكأن الأهم والأكثر إزعاجاً قد قيل ولم يبق أمامه سوى محادثة سارة - اعتقدنا خلال فترة من الزمن بأنك ستعود. جميعنا كنا في انتظارك. جميعنا كنا أصدقاءك. اعذرني، لكنك كنت شخصاً مميزاً. عذرناك لأننا نعلم بأن الموسيقى هي الأهم بالنسبة لك من أي شيء آخر. لم نفهم لماذا ذهبت، لكننا تقبلنا ذلك لأننا نعلم أنه لديك دوافعك. نعلم بأنك تحمّلت كل شيء بمشقة أكثر منا، نحن الجنود الحقيقيين. ما كان بالنسبة لك حالة، كان بالنسبة لنا استعداداً وميلاً طبيعياً. ما كان بالنسبة لك قناعاً، كان بالنسبة لنا قدراً. لم نستغرب حين ألقيت قناعك. لكننا فكرنا بأنك ستعود ذات يوم. أو أنك ستكتب لنا. كثيرون فكروا هكذا، أنا أيضاً، أعترف لك. كريستينا أيضاً. وآخرون في الكتيبة، إذا كنت مازلت تتذكرهم.

- لم أعد أتذكر جيداً - لاحظ الضيف بلا مبالاة.

- طبعاً، لابد أنه كان لديك الكثير من التجارب المثيرة للاهتمام. لقد عشت في العالم كله. سرعان ما ينسى المرء في حالات كهذه.

- كلا - قال الآخر - العالم لا يساوي شيئاً. ما هو مهم حقاً لاتنساه أبداً. لقد أدركت ذلك فيما بعد، حين بدأت أشيخ. يختفي طبعاً كل ما هو ثانوي، كل ما هو إضافي، ترميه في البحر كالأحلام السيئة. لا أتذكر الكتيبة - كرر بعناد - منذ بعض الزمن أتذكر فقط ما هو جوهري.

- مثلاً فيينا وهذا البيت؟ هذا ما تريد قوله؟

- فيينا وهذا البيت ـ كرر الضيف ميكانيكياً. إنه ينظر إلى الأمام من بين جفنيه بعينين مفتوحتين جزئياً ـ كل شيء في الذاكرة يمرّ من غِرْبالها السحري. بعد عشر أو عشرين سنة تدرك بأن بعض الأحداث، مهما بدت لك فائقة الأهمية فإنها لم تبدل فيك شيئاً على الإطلاق، بيد أنك تتذكر رحلة صيد، تفاصيل كتاب ما أو هذه الصالة. حين تناولنا العشاء هنا في المرة الأخيرة، كنا ثلاثة. كانت كريستينا ما زالت حيّة. جلست هناك في المركز. الطاولة كانت موضوعة مثلما هي عليه اليوم.

- نعم ـ قال الجنرال ـ أمامك كان الشرق، أمام كريستينا الجنوب. وأمامي الغرب.

- تتذكر حتى أدق التفاصيل ـ علّق الضيف متفاجئاً.

- أتذكر كل شيء.

- طبعاً، التفاصيل مهمة جداً أحياناً، تربط كل شيء بشكل محكم، تلصق المادة الأولية للذكريات. بهذا فكرت في بعض المناسبات، حين يهطل المطر وأنا في المنطقة الاستوائية.

يا له من مطر ـ قال وكأنه يريد التكلم عن شيء آخر ـ تمطر خلال شهور. يضرب المطر الأسطح الصفيحية وكأنه رشاش. تنبعث من المستنقعات رائحة النتن، المطر يبعث على الحرارة. كل شيء رطب، الملاءات، الثياب الداخلية، الكتب، التبغ في علبته، الخبز. كل شيء دبق ولزج. تجلس في البيت والماليزيون يغنون. المرأة التي استقبلتها تجلس في ركن دون حراك وهي تنظر إليك. إنهن قادرات على المكوث جالسات هكذا دون حراك خلال ساعات وهن ينظرن إليك. في البداية لا تعيرها اهتماماً، ثم تثير أعصابك وتأمرها بالخروج، لكن ذلك أيضاً

من دون جدوى: تعرف بأنها ستتابع جلوسها في مكان آخر من البيت، في غرفة أخرى، وأنها ستتابع النظر إليك حتى عبر الجدران. لهن عيون كستنائية كبيرة جداً، كعيون الكلاب التيبيتية، هذه الحيوانات الصموتة والأكثر مكراً فوق سطح الأرض. ينظرن إليك هادئات بعيونهن البراقة، وأينما ذهبت تشعر بنظراتهن وكأن ثمّت ساحراً يلاحقك بصواعقه الشريرة. إذا صرخت في وجوههن يبتسمن. إذا ضربتهن ينظرن إليك ويبتسمن. إذا طردتهن يجلسن على عتبة بيتك ويتابعن النظر إليك. حينئذٍ تشعر بأنك ملزم بتركهن يعودون. يلدن بلا انقطاع، لكن ما من أحد يتكلم حول ذلك قط، ولا حتى النساء ذاتهن. وكأن في بيتك حيوان، مجرمة، كاهنة، شافية دجالة ومجنونة في الشخص ذاته. ينتهي بك الأمر وأنت منهك، لأن نظرتها على درجة من النفوذ حتى أنها ترهق الأكثر قوة. إنها نافذة وكأنها تلمسك. وكأنها تداعبك دون توقف. شيء يبعث على الجنون. تأتي لحظة لم تعد فيها تهتم. يستمر المطر، وأنت تستمر هناك، جالساً في غرفتك تحتسي الخمر، الكثير من الخمر وتدخن تبغاً حلو المذاق. أحياناً يجيء أحد ما إلى بيتك، لا يتكلم كثيراً، يحتسي الخمر ويدخن التبغ الحلو المذاق. تريد أن تقرأ لكنك لا تستطيع. المطر يدخل بشكل ما إلى الكتاب، ليس حرفياً، لكنه واقعي، لست قادراً على متابعة السطور، تستمع إلى وقع المطر فحسب. تريد أن تعزف على البيانو، لكن المطر يجلس إلى جانبك ويعزف أيضاً. فيما بعد يأتي موسم الجفاف بلمعانه الطافح بالبخار. سرعان ما يشيخ المرء هناك.

- بولونيزا ـ فانتازيا... هل عزفتها مرة في المنطقة الاستوائية؟ـ سأل الجنرال بلباقة شديدة.

ها هما يأكلان اللحم نصف الناضج باستمتاع وشهيّة، مستغرقان بالمضغ والبلع بسلوك الأشخاص المسنين الذين لم يعد الطعام يستلزم تغذية أنفسهم فقط، إنما يمثّل فعلاً جليلاً وسلفياً. يمضغان ويأكلان بانتباه شديد، وكأنهما يريدان تجميع قواهما. العمل يتطلّب قوة، والقوى موجودة في الطعام أيضاً، في اللحم نصف الناضج، في الشراب وفي النبيذ الأسود تقريباً. يصدران قليلاً من الصخب وهما يأكلان، باستسلام وجدية وورع: لم يعد لديهما وقت لتناول الطعام بتهذيب، لأن ما يهمهما أكثر هو مضغ الطعام حتى آخر أليافه، إخراج كل عصارة اللحم والحصول على كل القوة الحيوية التي يحتاجانها. يأكلان بحركات ناعمة، لكن أيضاً على طريقة العجائز في القبيلة أثناء وليمة مهيبة: بنفحة من الجدية والقدرية.

يراقب رئيس الخدم بانتباه من أحد أركان الصالة حركات الخادم القادم حاملاً صينية كبيرة متوازنة في يديه. في مركز الصينية يوجد مثلجات بالشوكلاته مسكوب فوقها الكحول وينبعث منها لهب أزرق وأصفر.

سكب الخدم الشمبانيا في كأسي الضيف والمضيف. يتشق العجوزان الخبيران عبير محتوى الزجاجة الأصفر الشاحب والتي لها حجم طفل مولود للتو.

تذوّق الجنرال الشمبانيا وأزاح كأسه جانباً. طلب الخادم كي يقدّم له مزيداً من النبيذ الأحمر. راقب الضيف المشهد من بين اختلاجة جفنيه. لقد أكلا وشربا كثيراً إلى أن توردا.

- في زمن جدّي - قال الجنرال ناظراً إلى كأسه - كانوا يضعون ليتراً ونصف من نبيذ المائدة أمام كل ضيف. حصة كل فرد ،ليتر ونصف من

نبيذ المائدة. حدّثني والدي بأنه كان لدى الملك أيضاً عادة وضع نبيذ المائدة في زجاجات من الكريستال أمام ضيوفه. لكل ضيف زجاجة، لذا يسمى نبيذ المائدة، لأنه هناك، على المائدة لكي يشرب كل شخص الكمية التي يرغب فيها. النبيذ ذو النوعية الجيدة يقدمونه على حدة. كان ذلك هو النهج الساري في البلاط.

- نعم ـ قال كونراد، متورداً وماضياً في عملية الهضم ـ في تلك الأزمنة كل شيء منسجم مع نظام شديد الكمال ـ أضاف بلامبالاة.

- هناك جلس ـ قال الجنرال وكأنه يروي نادرة، مشيراً بالنظر إلى المكان الذي شغله الملك، في المركز ـ إلى يمينه جلست والدتي، على يساره جلس الخوري. كان هنا جالساً إلى هذه المائدة في الموقع الأساسي. نام في غرفة من الطابق الأول، في تلك الغرفة المفروشة بالأصفر. رقص بعد العشاء مع والدتي ـ أضاف بصوت خفيض، بصوت عجوز، صوت طفل تقريباً، مستدعياً الذكريات ـ كما ترى، عن هذا لا أستطيع التكلم مع أي شخص آخر. لذا أيضاً يسعدني مجيئك ـ قال بجدية تامة ـ أنت عزفت مرة بولونيزا ـ فانتازيا مع والدتي. ألم تعزفها هناك في المنطقة الاستوائية؟ ـ عاد وسأل، كأنه تذكر ما هو أكثر أهمية.

الضيف يتأمل.

- كلا ـ أجاب ـ لم أعزف قطعاً أي شيء لشوبان في المنطقة الاستوائية. أنت تعلم بأن الموسيقى تحرّك أشياء كثيرة في داخلي. في المنطقة الاستوائية يصبح المرء أكثر حساسية.

بما أنهما أكلا وشربا فقد نسيا اللحظات الأولى من لقائهما المتوتر والمهيب. لقد أصبح الدم أكثر دفئاً ويتدفق بنشاط أكبر في شرايينهما المتصلبة والمنتفخة في الجبهة والصدغ. قدّم الخادم الفواكه من الدفيئة،

هما يأكلان العنب والنيسبيرو. الصالة أصبحت دافئة. نسمة الصيف الليلية ترفع ستائر الحرير الرمادية عن النوافذ المفتوحة جزئياً.

- نستطيع شرب القهوة في الجهة الأخرى. اقترح الجنرال.

في تلك اللحظة تفتح هبة ريح النوافذ على مصاريعها. تبدأ الستائر الرمادية الثقيلة بالاهتزاز، تهتز كذلك الثريا الهائلة في السقف مثلما يحدث في السفن حين يهبّ إعصار. صاعقة تضيء السماء للحظة بشعاعها الأصفر كالكبريت وتقطع عتمة الليل لكأنها سيف برّاق يقطع جسد الضحية الجاثية. هزت العاصفة صالة الطعام مطفئة بعض الشموع التي كانت ترتجف وجلة، وفجأة خيّم الظلام. اقترب رئيس الخدم مع خادمين من النوافذ لإغلاقها، باحثاً ومتلمساً طريقه في العتمة. أدركوا بأن المدينة كلها تقبع في الظلام.

ألحقت الصاعقة ضرراً في محطة توليد الكهرباء المركزية في المدينة. يستمران في جلوسهما دون التفوه بكلمة، في العتمة، لايضيئهما شيء سوى نار التشيميني وشمعتان وحيدتان بقيتا مشتعلتين. حمل الخدم شموعاً أكثر في شمعدانات كبيرة ذات أذرع متعددة.

- في الجهة الأخرى. كرر الجنرال، دون أن يعير اهتماماً للصاعقة أو العتمة.

أشار أحد الخدم إلى الطريق حاملاً شمعداناً أمامهما. اجتازا قاعة الطعام في هذا الضوء الشبحي المتأرجح قليلاً كظليهما المتمايلين على الجدران؛ اجتازا الصالون البارد ثم وصلا إلى صالة الجلوس حيث الأثاث الوحيد الموجود هو البيانو الأفقي الممتد إلى الخلف والمرفوع غطاؤه، وثلاثة مقاعد حول المدفأة البورسلانية الدائرية والدافئة. جلسا ونظرا إلى المشهد المعتم عبر النافذة المغطاة بستائر بيضاء تلامس الأرض. قرّب

الخادم طاولة صغيرة ووضع فوقها فناجين القهوة، السيجار وكؤوس الخمر الصغيرة، ثم وضع بعد ذلك شمعداناً من الفضة على طرف المدفأة مع بعض شموع الكنيسة المشتعلة والثخينة كذراع طفل صغير. أشعل كلاهما السيجار. جلسا دون التفوه بكلمة وهما ينتظران أن يدفأ جسداهما. من المدفأة تصلهما الحرارة على نسق واحد من جذوع الحطب، وضوء الشموع يضيء السقف. أغلقا الباب وراءهما. لقد أصبحا وحيدين.

13

لن نعيش سنينَ طويلة بعد الآن - قال الجنرال دون موارية أكثر وكأنه سينطق بالنتيجة النهائية لنقاش دون كلمات - سنتان، ربما أقل. لن نعيش طويلاً لأنك عدت. وأنت أيضاً تعلم. كان لديك الوقت للتفكير بذلك، هناك في المنطقة الاستوائية، ثم في بيتك بضواحي لندن. واحد وأربعون عاماً هي سنون كثيرة. لقد فكرت بها، أليس كذلك؟... مع ذلك عدت، لأنك لم تستطع فعل شيء آخر. وأنا كنت أنتظرك، لأنني لم أستطع فعل شيء آخر. نحن الاثنين نعلم بأننا سنرى بعضنا ثانية وأنه سينتهي بذلك كل شيء. ستنتهي حياتنا وكل ما ملأ ها حتى الآن بالفحوى والتوتر، لأن الأسرار كالتي بيننا لها قوة في منتهى الخصوصية. إنها تحرق أنسجة الحياة مثل صواعق شريرة، لكنها أيضاً تضفي التوتر وشيئاً من الدفء على الحياة. تُلزمك على متابعة العيش. .. طالما لدى المرء شيء يفعله في هذه الأرض، تجعلك تحافظ على متابعة العيش. سأحكي لك عن تجربة عزلتي في الغابة خلال الواحد والأربعين عاماً الأخيرة، بينما أنت كنت في المنطقة الاستوائية وتجوب العالم. العزلة هي أيضاً حالة في منتهى الخصوصية. أحياناً تَمثُل كغابة ممتلئة بالمخاطر والمفاجآت. أنا أعرف كل تنوعاتها. السأم الذي تحاول عبثاً جعله يتوارى مستعيناً بنسق حياة منظمة بشكل اصطناعي. الأزمات المتكررة وغير المتوقعة. العزلة هي مكان طافح بالأسرار، مثل الغابة. كرر بإصرار - يعيش المرء في نظام صارم، وفجأة ينتابه الجنون، مثل أصحابك الماليزيين. يحيط بنا عدد كبير من الغرف، من الألقاب

والمراتب، نظام حيوي دقيق وتام. وذات يوم نترك كل شيء ونشرع بالركض، مثل نوبة شغف بالقتل، مع سلاح أو من دونه... ومن دون سلاح سيكون الأمر ربما أكثر خطورة. يبدأ سباق مع العالم بعينين تحدقان في العدم؛ الرفاق والأصدقاء القدامى يحيدون عن طريقنا. نقترب من المدينة الكبيرة، ندفع لبعض النساء، كل شيء ينفجر من حولنا، نبحث فلا نجد سوى النزاع في كل مكان. وكيف أقول لك، هذا ليس هو الأسوأ. يمكن أن نبقى ملقيين على قارعة الطريق مثل كلب أجرب. يمكن أن نرتطم بجدار، أن نصطدم بألوف العوائق التي تقدمها لنا الحياة، يمكن أن نحطّم عظامنا. الأسوأ هو حين نحاول كبت العواطف في دواخلنا التي ولّدتها العزلة في أرواحنا. حين لا نشرع بالركض. حين لا نحاول قتل أحد، ما الذي سنفعله حينئذٍ؟ نحيا، ننتظر، نحافظ على النظام من حولنا. نحيا ونحن نحترم طقساً وثنياً أو دنيوياً... مثل راهب، مع أن الأمر بالنسبة للرهبان أكثر سهولة، لأن لديهم إيماناً. الأشخاص الذين يسلمون أرواحهم وقدرهم للعزلة لا يتحلون بالإيمان. ينتظرون فحسب. ينتظرون اليوم أو الساعة التي يستطيعون فيها توضيح كل ماقادهم إلى العزلة مع الأشخاص المسؤولين عن ذلك. رجل كهذا يهيئ نفسه لهذه اللحظة خلال عشر سنوات، خلال أربعين عاماً، واحد وأربعين عاماً، إذا ما توخيت الدقة، مثلما يتهيأ بطلا المبارزة عند التحدي. يتركان كل شيء منظم في حياتهما لكي لا يدينان لأحد في حال موت أحدهما أثناء المبارزة. يتدربان كل يوم وكأنهما محترفان، لكن على أي شيء يستطيع التدرب رجل يرتكن إلى العزلة؟ على ذكرياته ذاتها، لكي لا يسمح للعزلة والزمن المنصرم بأن يفغرا شيئاً في روحه وفي قلبه. لأن ثمّت مبارزة في الحياة، نزال دون سيف أو حسام

تستحق التحضير لها جيداً. المبارزة الأكثر خطورة. ستأتي ذات يوم دون أن نناديها. أنت أيضاً تعتقد ذلك؟ ـ سأل بلباقة.

- تماماً ـ أجاب الضيف ناظراً إلى رماد سيجاره.

- يسعدني أنك تفكر بالطريقة ذاتها ـ قال الجنرال ـ هذا الانتظار يبقي على المرء حياً. طبعاً لهذا أيضاً حدوده، مثل كل شيء في الحياة. لو لم أكن متأكداً من أنك ستعود كنت سأذهب بنفسي، بالأمس أو منذ عشرين عاماً للقائك في ضواحي لندن، في بيتك أو في المنطقة الاستوائية بين الماليزيين، أو في أعمق أعماق الجحيم. مهما يكن كنت سأجدك، وأنت تعلم ذلك أيضاً. يبدو أن المرء متيقن دائماً من كل ما يهمّه حقاً. معك الحق: حتى دون هاتف، دون راديو، دون أي شيء. لا يوجد في بيتي هاتف، ثمّت واحد فقط في مكتب مدير المزرعة، وليس لدي راديو كذلك: لقد حظرت إدخال الصخب المعدي والأحمق للعالم إلى البيت حيث أعيش. لم يعد العالم يستطيع فعل شيء ضدي. النظام الجديد للعالم يمكنه أن يقضي على شكل الحياة التي ولدتُ وعشت في ظلها؛ تستطيع القوى الجديدة النزقة والعدوانية محقي، تستطيع القضاء على حياتي وحريتي. كل ذلك يجعلني غير مبال، ما يهمني هو أنني لا أتعامل مع العالم، لا أحاول المساومة مع العالم الذي عرفته والذي استثنيته من حياتي. مع ذلك، لم أكن أحتاج إلى أي من تلك الأجهزة الحديثة لكي أعرف بأنك على قيد الحياة وأنك ستعود ذات يوم. لم أحاول استعجال هذه اللحظة. أردت انتظارها بالطريقة ذاتها التي ينتظر فيها المرء نظام ووقت كل شيء، جميع الأشياء. الآن وصلتَ.

- ما الذي تريد قوله من كل هذا؟. قال كونراد ـ لقد ذهبتُ، ولدي الحق في فعل ذلك. ربما كان لدي بالإضافة إلى ذلك دوافعي. صحيح

أنني ذهبت فجأة، دون وداع أحد. من المؤكد بأنك فكرت وافترضت بأنني لم أستطع فعل شيء آخر وبأنني شعرت بوجوب فعل ذلك على هذا النحو.

- لم تستطع فعل شيء آخر؟ـ سأل الجنرال رافعاً رأسه. نظر إلى ضيفه بعينين نافذتين وكأن الآخر مجرّد شيء - بهذا يتعلق الأمر تماماً. هذا ما دفعني للتفكير منذ زمن طويل. منذ واحد وأربعين عاماً خلت، إذا لم أكن مخطئاً. لم يجب الآخر، فتابع .: بما أنني الآن عجوز فإنني أفكر مراراً بطفولتي. يُقال بأنها عملية طبيعية. يتذكر المرء البداية بقوة ودقة أكثر مما حين يقترب من النهاية. أرى وجوهاً وأسمع أصواتاً. أرى اللحظة التي قدمتك فيها إلى والدي في حديقة الأكاديمية. لقد تقبّلك في تلك اللحظة ذاتها كصديق، لأنك كنت صديقي. كان يكلّفه جهداً تقبّل الآخرين كأصدقاء، لكن يمكن الاعتماد على كلمته حتى الموت. هل تتذكر تلك اللحظة؟... كنا بالقرب من أشجار الكستناء، أمام المدخل الرئيسي، وهناك صافحك والدي. "أنت صديق ابني"، استراح، ثم أردف "قدّرا صداقتكما حق قدرها"، أضاف بجدية تامة. أعتقد أنه لم يكن ثمّت شيء في العالم أكثر أهمية بالنسبة له من تلك الكلمات. هل تسمعني؟... أشكرك. سأروي لك كل شيء. سأحاول اتّباع ترتيب ما. لا تقلق، العربة جاهزة، يمكنها أن تقلّك إلى المدينة في أية لحظة، إذا كان هذا ما تريد. لا تقلق، ليس عليك أن تنام في البيت، إذا كنت لا تريد. أريد القول أنه ربما لن تشعر بالارتياح إذا ما كان عليك النوم هنا. مع ذلك، إذا كنت ترغب يمكنك قضاء الليل هنا - قال بنبرة لا مبالية وكأنه يتكلم عن شأن لا أهمية له. وبما أن الآخر رفض بإيماءة، أضاف .: كما تريد. العربة جاهزة. ستأخذك إلى

المدينة. وفي الصباح يمكنك الرحيل إلى بيتك في ضواحي لندن، إلى المنطقة الاستوائية أو إلى حيث تريد. لكن استمع إليّ أولاً.

- إنني أستمع - قال الضيف.

- أشكرك - قال الجنرال بهمة أكبر - يمكننا أيضاً أن نتكلم عن أمور أخرى. عجوزان صديقان في نهاية حياتهما يتذكران أشياء كثيرة. لكن نحن، بما أنك هنا، سنتكلم عن الحقيقة فحسب. لنبدأ من حقيقة أن والدي تقبّلك كصديق. تعلم جيداً ما يعنيه ذلك بالنسبة له، علمتَ منذ تلك اللحظة ذاتها بأنه حين يمدّ يده لأحد، فإن هذا الشخص يمكنه الاعتماد على مساندته في أية لحظة ضيق أو محنة، حتى الموت. نادراً ما يمدّ يده لأحد، لكنه حين يفعل يفعل ذلك عن صدق. هكذا مدّ يده لك في حديقة الأكاديمية بالقرب من أشجار الكستناء. كان لنا اثنا عشر عاماً من العمر. كنا نعيش اللحظات الأخيرة من الطفولة. أحياناً، في الليل، أرى تلك اللحظة بوضوح مطلق، كما أرى أيضاً كل اللحظات الأخرى ذات الأهمية الحقيقية. إن كلمة " صداقة " بالنسبة لوالدي هي مرادف للشرف. أنت تعلم ذلك، إذ أنك تعرف والدي. دعني أضيف بأنها بالنسبة لي كانت تعني أكثر من ذلك. اعذرني إذا كان كل ما أرويه غير مريح لك - أضاف بنبرة متحفظة ودافئة تقريباً.

- كلا، ليس كذلك - أجاب كونراد بنبرة مشابهة - تابع.

- من الجيد أن أعلم - تابع الجنرال وكأنه يحاور ذاته - إذا كانت الصداقة موجودة حقاً. لا أقصد المتعة اللحظية التي يشعر بها شخصان يلتقيان مصادفة، أو البهجة التي تغمرهما لأنهما يشاطران في لحظة معينة من حياتهما الأفكار ذاتها حول أمور ما، أو لأنهما يشاطران في الذوق وفي الميول. هذا ليس صداقة بعد. أفكر أحياناً بأن الصداقة هي

العلاقة الأكثر قوة في الحياة، ولذلك لا تمثّلُ إلا في حالات قليلة. ما الذي يختبئ خلف الصداقة؟ التعاطف؟ إنها كلمة جوفاء، ضعيفة. فحواها لا يمكن أن يكون كافياً لكي يحافظ شخصان على اتحادهما حتى في أكثر المواقف تناقضاً. يساعدان ويساندان بعضهما على مدى الحياة... لمجرّد التعاطف؟ أم يتعلق الأمر بشيء آخر؟ ربما يوجد في عمق كل علاقة إنسانية طابع جنسي؟ هنا في عزلتي، في غاباتي، توصلت إلى التفكير في ذلك محاولاً إدراك الوجوه المتعددة للحياة، إذ أنه لم يكن لدي شيء آخر أفعله. الصداقة هي طبعاً شيء مختلف، لاعلاقة لها بالجاذبية المرضية للذين يبحثون عن إشباع رغباتهم مع أشخاص من جنسهم. الطابع الجنسي للصداقة لا يحتاج إلى الجسد. ليس جذاباً، حتى أنه لا جدوى منه. مع ذلك لا يتخلى عن كونه طابعاً جنسياً. في أعماق كل حب، كل مودة، في كل العلاقات الإنسانية ينبض الطابع الجنسي. أتعلم؟ لقد قرأت كثيراً - علّق وكأنه يريد الاعتذار - الآن يُكتب عن كل هذا بحرية أكثر. أعدت كذلك قراءة أفلاطون مراراً، إذ أنني لم أفهم شيئاً في الأكاديمية مما أراد قوله. الصداقة، هذا ما اعتقده (بما أنك جبت نصف العالم فستعلم ذلك أكثر مما استطعت أنا استنباطه هنا في عزلتي الريفية) الصداقة هي العلاقة الأكثر نبلاً التي يمكن أن تقوم بين الكائنات الإنسانية. يا للغرابة ! فإن الحيوانات كذلك تعرف الصداقة. الصداقة موجودة بين الحيوانات، الإيثار على النفس، الاستعداد للمساعدة. ثمّت دوق روسي كتب حول ذلك... لم أعد أتذكر اسمه، هناك أسود ونوع من أنواع الديوك وكذلك حيوانات أخرى مختلفة الأجناس والمشارب تحاول مساعدة أبناء جنسها الذين يقعون في مأزق، حتى أنها تحاول إنقاذ حيوانات من أجناس أخرى، هذا ما رأيته بأم عيني. هل رأيت شيئاً

مشابهاً في البلدان الأجنبية؟ الصداقة هناك تعني بالتأكيد شيئاً آخر، متطوراً أكثر وعصرياً أكثر من هنا، من عالمنا هذا المتخلّف. الكائنات الإنسانية تنظم المساعدة المألوفة فيما بينها... مع أنه يكلفها جهداً أحياناً التغلّب على العوائق التي تعترضها؛ دائماً وفي أي تجمّع للكائنات الحيّة ثمّت أشخاص أقوياء ومتفانون. لقد رأيت مئات الحالات في عالم الحيوان. رأيت بين الناس أقل. لم أر شيئاً لكي أكون أكثر دقة. العلاقات التي ترتكز على التعاطف ورأيتها تولد وتتطور بين الكائنات الإنسانية انتهت كلها إلى الغرق في مستنقع الأنانية والغرور. الرفقة والصحبة تكتسب في بعض الحالات شكل الصداقة. المصالح المشتركة يمكن أن تنتج مواقف إنسانية تشبه الصداقة. العزلة أيضاً تجعل الأفراد يلجؤون إلى علاقات أكثر حميمية. في النهاية يندمون، مع أنهم يعتقدون في البداية بأن هذه الحميمية هي شكل من أشكال الصداقة. طبعاً، كل ذلك لا علاقة له بالصداقة الحقيقية. يقتنع المرء، ووالدي فهم الأمر هكذا، بأن الصداقة هي خدمة. مثل العاشق، الصديق لاينتظر ثواباً لمشاعره. لا ينتظر أية مكافأة ،لا يسبغ الكمال على التي اختارها كصديقة، إذ أنه يعرف نواقصها ويقبل بها كما هي، مع كل العواقب المترتبة على ذلك. هذا هو الأسوة المثلى. الآن من الضروري معرفة إذا كان يستحق العيش، إذا كان يستحق أن يكون رجلاً من دون مثال كهذا. وإذا ما أخطأ صديق لنا، هل سيكون صديقاً حقيقياً؟ هل نستطيع أن نلقي عليه اللوم، على سجيته، على ضعفه؟ أية قيمة للصداقة إذا كنا نحب في الشخص الآخر فضائله فحسب، وفاءه وحرصه؟ أية قيمة لأي حب يبحث عن مكافأة. ألن يكون من الملزم القبول بالصديق غير الوفي بالطريقة ذاتها التي نقبل بها

الصديق المتفاني والوفي؟ أليس التفاني هو تماماً الجوهر الحقيقي لكل علاقة إنسانية. تفان لا يصبو المرء من خلاله إلى شيء ولا ينتظر شيئاً من الآخر؟ تفان، حيث كلما أعطيت أكثر، كلما انتظرت منه أقل بالمقابل؟ وإذا ما قدمت لأحد ما كل ثقة مرحلة شبابك، كل الاستعداد للتضحية في مرحلة نضوجك وأخيراً تقدم له أكثر ما يمكن لكائن إنساني تقديمه للآخر، إذا قدمت له كل الثقة العمياء، دون شروط، ثقتك الشغوفة، ثم تدرك بعد ذلك أن الآخر غير وفيّ لك ويتصرّف معك بنذالة، هل سيكون لديه الحق في أن يغتاظ منك، في أن ينتقم منك؟ وإذا ما اغتاظ وانتقم، هل سيكون هو ذاته صديقاً، هو المخدوع والمهجور؟ أترى؟ لقد شغلتني هذه الأمور النظرية منذ أن أصبحت وحيداً. طبعاً الوحدة لم تقدم لي أدنى إجابة. وكذلك الكتب لم تقدم لي الجواب الشافي. حتى كتب القدماء، بحوث المفكرين الصينيين، العبريين أو اللاتينيين، ولا الكتب المعاصرة التي يستخدمون فيها تعابير خالية من التناغم، لكنها تبقى في مستوى الكلمات فحسب، ولا تتوصل كذلك إلى الحقيقة. لكن، بالإضافة إلى ذلك... هل قال أحد يوماً ما أو كتب الحقيقة؟ لقد فكرت بذلك مرات عديدة منذ أن بدأت بالبحث في روحي وفي الكتب. يمضي الزمن والحياة تعود في كل مرة أكثر غموضاً من حولي. الكتب والذكريات تتراكم وتصبح في كل مرة أكثر تلاصقاً. كل كتاب يحتوي على ذرة من الحقيقة، وكل ذكرى تبرهن لي بأن المرء لا يعرف الطبيعة الحقيقية للعلاقات الإنسانية، وأنه لا يصبح كذلك أكثر حكمة من فرط المعرفة. لذا لا نملك أي حق في المطالبة لا بالحقيقة ولا بالوفاء من ذاك الذي قبلنا به ذات يوم كصديق، حتى إذا برهنت الأحداث بأن هذا الصديق لم يكن وفياً.

- هل أنت متأكد بشكل مطلق - سأل الضيف - بأن ذاك الصديق لم يكن وفياً؟

مكث الاثنان صامتين لفترة من الزمن. بديا ضئيلين في الظلال، تحت الضوء المرتجف للشموع: عجوزان هزيلان ينظران إلى بعضهما ويتبددان تقريباً في العتمة.

- لست متأكداً تماماً - أجاب الجنرال - لذا أنت هنا. حول هذا بالذات نتحدث.

مال في المقعد إلى الوراء، عقد ذراعيه بحركة هادئة وانضباطية. وتابع كلامه هكذا:

- ثمّت حقيقة في الوقائع بالطبع. حدث هذا وذاك. بهذه الطريقة أو تلك. في هذه اللحظة أو تلك. هذا ليس عسيراً اكتشافه. الوقائع تتحدث عن نفسها، كما يُقال، وفي نهاية الحياة تشي بنفسها صارخة بقوة أكثر من متهم على منصة التعذيب. أولاً وأخيراً، كل شيء حدث كما حدث، وهذا لا يبدل شيئاً. مع ذلك، فإن الوقائع أحياناً ليست سوى نتائج مؤسفة عن وقائع أخرى. الإثم ليس بما يقوم به المرء، إنما بالطوية التي توجد في داخله. كل شيء يقتصر على الطوية. أهم النظم الحقوقية القديمة التي ترتكز على الدين (التي درستها) تعرف ذلك وتطالب به. يمكن لشخص أن يرتكب خيانة أو كفراً، نعم، وحتى يمكن أن يرتكب جريمة قتل، وفي الوقت ذاته يبقى نقياً ونظيفاً من الداخل. الفعل في حد ذاته لا يمثّل الحقيقة. إنه نتيجة فحسب، وإذا ما وجد المرء نفسه مجبراً على ممارسة مهنة القاضي ويريد الحكم على أحد، يجب عليه أن يتخطى الوقائع الواردة في التقرير البوليسي، وعليه أن يعرف مايسميه دكاترة الحقوق الدوافع. من السهل فهم فعل هروبك، لكن

ليس الدوافع. صدقني إذا ما قلت لك أنه في الواحد وأربعين عاماً الأخيرة بحثت ومحصّت كل إمكانية يمكنها أن تشرح هذه الخطوة غير المفهومة. أي من افتراضاتي لم تعطني جواباً. الحقيقة فحسب هي التي يمكنها إعطائي الجواب ـ قال.

- أنت تتكلم عن الهرب ـ قال كونراد ـ إنها كلمة قاسية. أولاً وأخيراً أنا لا أدين لأحد بشيء. لقد وضعت رتبتي العسكرية في خدمة قادتي، كما ينبغي. لم أترك خلفي أدنى دين، ولم أعد أحداً بشيء إلا ووفيت به. هروب هي كلمة شديدة القسوة ـ قال بجدية واستوى في مقعده.

مع ذلك، فإن ارتجافة صوته تشي بأن التأثر طغى عليه ومنحه طابع الجسامة وأنه لم يكن ينطوي على الصدق التام.

- من الممكن أن تكون كلمة قاسية ـ قال الجنرال موافقاً بحركة من رأسه ـ مع ذلك، إذا ما رأيت كل ما حدث عن بعد، فعليك أن تعترف بأنه من الصعب إيجاد كلمة أقل قسوة، أكثر نعومة. تقول بأنك لا تدين بشيء لأحد. هذا صحيح، وأنا أعرف ذلك. طبعاً أنت لا تدين بشيء إلى خياطك ولا لأي مرابي في المدينة. كذلك لا تدين لي بالنقود، ولم تترك لأحد وعداً لم تفِ به. مع ذلك، في ذلك المساء من حزيران (أنت ترى بأنني أتذكر تماماً بأنه كان يوم أربعاء)، حين تركت المدينة كنت تعلم بأنك تركت وراءك ديناً. ذهبتُ إلى بيتك في المساء، لأنهم أخبروني بأنك قد رحلت. لقد علمت بذلك عند الغروب في ظروف استثنائية. يمكننا التكلم حول ذلك في وقت آخر، إذا كنت ترغب. ذهبت إلى بيتك واستقبلني وصيفك. طلبت منه أن يتركني لوحدي في غرفتك، في ذلك البيت حيث عشتَ في السنوات الأخيرة أثناء خدمتك في

المدينة، بالقرب منا . صمت. مال إلى الوراء في مقعده، غطى عينيه وكأنه يتأمل شيئاً من الماضي. تابع كلامه بهدوء وكأنه يملي محاضرة . أطاعني الوصيف بالطبع، لم يستطع فعل شيء آخر. بقيت وحيداً في الغرفة حيث عشتَ. نظرت إلى كل شيء بدقة. اعذرني على هذا الفضول غير اللائق. لأنه بطريقة ما لم أستطع تصديق واقع أن الشخص الذي أمضيت معه القسم الأعظم من حياتي، اثنين وعشرين عاماً تماماً، أفضل سنيّ مرحلة مراهقتي، مرحلة شبابي ونضوجي، قد هرب. حاولت إيجاد عذر، فكرت أنك على الأرجح مريض، تمنيت أن تكون قد أصبحت مجنوناً أو أن أحداً يلاحقك، فكرت أن لديك مشاكل في القمار، بأنك خنت الجيش، الراية، خنت كلمتك وشرفك. تمنيت مثل هذه الأشياء. لا تتفاجأ: كل ذلك كان بالنسبة لي خطايا صغيرة قياساً لما ارتكبته في الواقع. لكنت تقبلت أي شيء كعذر، كتفسير، حتى عدم الوفاء تجاه المُثل الأكثر نبلاً في العالم. ثمّت شيء واحد وحيد لا أستطيع تفسيره: هو أن يكون خطؤك ضدي. هذا ما لم أستطع فهمه. ليس ثمّت عذر لذلك. لقد ذهبت مثل مختلس، مثل لص، ذهبت بعد أن كنا معاً، مع كريستينا ومعي. هنا في هذا المنزل بالذات، حيث اعتدنا قضاء ساعات وساعات في كل يوم وفي بعض الليالي خلال سنين، وسط ثقة وأخوّة حميمة، مثل التي توحّد توأمين، هذين الكائنين المميزين التي توحدهما نزوة الطبيعة إلى الأبد، في الحياة وفي الموت. التوأمان، كما تعلم، يعرفان كل شيء الواحد عن الآخر، حتى في سن الرشد، وإن كان يفصل بينهما مسافات بعيدة... ينصاعان للأوامر المخفية في أيض كل منهما. يمرضان في الوقت ذاته، بالوعكة ذاتها، وإن كان يعيش أحدهما في لندن والآخر بعيد عنه، في بلد آخر.

لا يكتبان لبعضهما، لا يتكلمان مع بعضهما، يعيشان في ظروف مختلفة جداً، يأكلان طعاماً مختلفاً ويفصلهما آلاف الكيلومترات. مع ذلك، في عمر الثلاثين أو الأربعين عاماً، يعانيان في الوقت ذاته من المرض ذاته، مغص قولوني أو التهاب الزائدة، وتبقى لهما الإمكانية ذاتها في أن يعيشا أو يموتا. الجسدان يعيشان في تكافل كما لو أنهما ما زالا في رحم الأم... الاثنان يحبان ويكرهان الشخص ذاته. إنه قانون طبيعي، لا يحدث مرات عديدة، لكنه ليس نادراً كذلك مثلما يعتقد البعض. لقد توصلت إلى التفكير بأن الصداقة هي آصرة شبيهة بالاتحاد المصيري للتوأمين. هذا التوافق المميز في الميول، في العواطف، في الأذواق، في التعلّم ،في الانفعالات التي تربط شخصين وتخصهما بمصير واحد. مهما فعلوا ضد أحدهما فمصيرهما سيستمر في كونه واحداً. أينما هربا فسيستمران في معرفة كل شيء مهم يتعلّق بهما. إذا ما اختارا صديقاً جديداً أو عشيقة جديدة فلن يتحررا من روابطهما دون إذن سري مضمر بينهما. مصير هذين الشخصين يمرّ هكذا، بشكل موازٍ حتى إذا انفصل أحدهما عن الآخر وذهب بعيداً، إلى المنطقة الاستوائية مثلاً. لقد فكرت بكل ذلك وأنا ساهٍ، هناك في غرفتك، يوم هروبك. إنني أرى تلك اللحظة بوضوح مطلق، يمكنني رؤية أضواء البيت تماماً، أستطيع الإحساس برائحة التبغ الإنكليزي الكثيف، أستطيع رؤية الأثاث، الصوفا ـ السرير المغطاة بنجادة شرقية، مناظر الفروسية التي تزيّن الجدران. حتى أنني أتذكر مقعداً من الجلد بلون نبيذ بوردو، مألوف في صالونات التدخين. تلك الصوفا ـ السرير كانت واسعة، تبدو وكأنها صُنعت على المقاس، لأنه في هذه المنطقة لا يصنعون أثاثاً كهذا. كانت صوفا تتحول عند فتحها إلى سرير لشخصين.

يراقب دخان السيجار.

- النافذة تطل على الحديقة. أتذكر جيداً، صحيح؟ كانت هي المرة الأولى التي أكون فيها هناك، وكذلك الأخيرة. لم ترغب قط بأن أذهب لرؤيتك هناك. لقد ذكرت لي عرضاً بأنك وجدت بيتاً للإيجار في ضواحي المدينة: بيتاً مع حديقة في حيّ مهجور. وجدته قبل ثلاث سنوات من هروبك. اعذرني على الكلمة، إني أرى بأنها لا تعجبك.

- تابع كلامك - قال الضيف - ليس للكلمات من أهمية. تابع كلامك بما أنك قد بدأت.

- هل تعتقد ذلك؟ سأل الجنرال متظاهراً بالسذاجة - ليس للكلمات من أهمية؟ إنني لا أستطيع إثبات ذلك بشكل مؤكد. أعتقد أحياناً بأن أشياء كثيرة، بأن كل شيء يتوقف على الكلمات، على الكلمات التي يقولها المرء في وقتها المناسب، أو التي يصمت عنها أو تلك التي يكتبها... نعم، أظنه كذلك - قال بإصرار - لم تدعني إلى بيتك قط، وبالتالي لم أحضر إلى هناك قط. بصدق، بما أني كنت شخصاً غنياً، اعتقدت بأن الخجل يعتريك من ذاك البيت، الذي اشتريت أثاثه بنفسك... ربما فكرتَ بأن الأثاث في منتهى البساطة... لقد كنتَ دائماً شخصاً أبيّاً - أضاف بحزم - الشيء الوحيد الذي فرّق بيننا في مرحلة شبابنا كان النقود. كان لديك الكثير من عزة النفس ولم تستطع مسامحتي على ثرائي. فيما بعد، أمضيت الحياة مستسلماً للأمر، توصلت إلى التفكير بأنه ربما لا يمكن المسامحة على الغنى. الثراء الذي عُرض عليك بصفة ضيف دائم كان في. .. لقد ولدت مع هذا الثراء، ومع ذلك فكرت أحياناً بأن ذلك شيء لا يمكن الصفح عنه. كنت دائماً مثابراً على جعلي أشعر بالفرق الذي كان بيننا في مسألة النقود. الفقراء، لا سيّما الفقراء الذين

يتحولون إلى سادة، لا يصفحون . قال برضا غريب في الصوت . لذا فكرت أن الأمر يتعلق على الأرجح في إخفاء ذاك البيت عني، وبأنك تشعر بالخجل من أثاث في منتهى البساطة. الآن أدركت بأن هذا الافتراض كان أحمق. مع أنه لم يكن لاعتزازك حدود. حسناً، إذن في ذلك اليوم كنتُ هناك، في ذلك البيت الذي استأجرته وأثثته، والذي لم ترني إياه قط، كنت هناك، في غرفتك، مذهولاً، لم أرد تصديق عينيّ. بيتك، تعلم ذلك جيداً، كان تحفة فنية. لم يكن كبيراً، صالون طعام في الطابق الأرضي وغرفتان في الطابق الثاني، لكن كل شيء، كل شيء على الإطلاق، الحديقة، المكان بحد ذاته، الأثاث، كان كل شيء مثل البيت الذي ينظمه فنان. في تلك اللحظة أدركت بأنك في الحقيقة فنان. أدركت كذلك كم كنت تشعر بالغربة بيننا، بين الناس العاديين. وأن الذين أجبروك على الانخراط بالجيش، ببساطة، من فرط الحب والرغبة في أن تكون أعلى منهم مرتبة، قد ارتكبوا جريمة. كلا، أنت لم تكن يوماً جندياً؛ وحينئذٍ كذلك أدركت الوحشة الهائلة التي كنت تشعر بها وأنت تعيش بيننا. ذلك البيت كان مخبأ لك، ملاذاً، مثل القلعة أو الدير لأولئك النازعين إلى العزلة في القرون الوسطى. مثل القراصنة الذين يجمعون كل ماسرقوه، جمعت هناك كل ما هو جميل ونبيل: ستائر، سجاد، أشياء قديمة من البرونز، الفضة والكريستال، أثاث، أقمشة ناعمة... أعلم أنه في تلك السنوات قد توفيت والدتك وأنك حصلت على بعض الإرث أيضاً من الجهة البولونية لعائلتك. لقد رويت لي مرة بأنه تنتظرك مزرعة وبيت خاص بالأشراف في مكان ما بالقرب من الحدود مع روسيا. بيتك كان مزرعة حقيقية؛ تلك اللوحات والأثاث الريفي المباع بخسارة، وغرفك الثلاث.

وكذلك البيانو ذو الجناح في وسط الصالون بالطابق الأرضي مع غطاء قديم فوقه وآنية تحتوي على ثلاث أوركيديات. لا يزرعون في هذه الأنحاء الأوركيديا، إنها تُزرع في الدفيئة خاصتي فقط. مررت بالغرف ونظرت إلى كل شيء بدقة. أدركت بأنك عشت بيننا، لكنك لا تنتمي إلينا. أدركت بأنك أبدعت ذلك البيت مثلما يبدع الفنان تحفة فنية، في السر، بكل ما أوتيت من قوة وإصرار، مخبئاً عن العالم الخارجي ذلك المكان، ذلك البيت المميّز، حيث يمكنك أن تكرّس نفسك لنفسك ولفنّك، لأنك كنت فناناً، وربما استطعت أن تبدع شيئاً - قال كمن لا يسمح بالتناقضات - كل ذلك أدركته هناك، بين الأثاث الاستثنائي لذاك المكان المهجور. وفي تلك اللحظة دخلت كريستينا.

عقد ذراعيه وتابع كلامه بالرتابة ذاتها واللامبالاة التي يسرد فيها ملابسات حادث في مخفر للشرطة.

- كنت أمام البيانو أنظر إلى الأوركيديا - تابع - ذلك البيت كان مثل اللباس التنكري. أم أن اللباس التنكري كان بزتك الرسمية؟ أنت فقط من يستطيع الإجابة على هذا السؤال؛ وبشكل ما الآن، حيث انتهى كل شيء، فقد أجابت حياتك بأسرها عنه. حياة المرء بأسرها هي التي تجيب دائماً عن الأسئلة الأكثر أهمية. لا يهم ما يقول، لا يهم بأي كلمات وبأي حجج يحاول الدفاع فيها عن نفسه. في النهاية، في نهاية كل شيء، فإن المرء يجيب عن كل الأسئلة بالأفعال التي قام بها في حياته، على الأسئلة التي طرحها عليه العالم مرة تلو الأخرى. الأسئلة هي هذه: من أنت؟ ماالذي أردته في الحقيقة؟ ما الذي عرفته في الحقيقة؟ لأي شيء كنت وفياً أو غير وفي؟ مع أي شيء أو مع من سلكت سلوكاً شجاعاً أو جباناً؟ هذه هي الأسئلة. يجيب المرء عليها كما يستطيع، قائلاً الحقيقة

أو كاذباً: هذا لا أهمية له. ما هو مهم أن حياة المرء بأسرها تجيب في النهاية على تلك الأسئلة. أنت نزعت بزتك الرسمية، لأنك اعتبرتها لباساً تنكرياً، هذا ما أصبحنا نعرفه. أنا احتفظت بها حتى اللحظة الأخيرة، طالما الخدمة والعالم يطالبانني بها: هذا كان جوابي. هذا كان أحد الأسئلة. السؤال الآخر هو: ما الذي كان مشتركاً بيننا؟ هل كنت صديقاً لي؟ لقد هربت أولاً وأخيراً. ذهبت دون وداع، ليس تماماً، إذ أنه في اليوم السابق، خلال رحلة الصيد حدث شيء لم أدرك معناه إلا فيما بعد، وذاك كان بمثابة وداع. لا يعرف المرء أي كلمات أو أفعال لك تنبئ عن شيء نهائي، عن تغيّر قدري لا رجعة فيه في علاقاتك. لماذا ذهبتُ إلى بيتك في ذلك اليوم؟ فأنت لم تهتف لي، لم تودّع أحداً، لم ترسل لي أي خبر. ما الذي كنت أبحث عنه في ذاك البيت الذي لم تدعني إليه قط، وذلك تماماً في اليوم الذي ذهبت منه للتو إلى الأبد؟ أي خبر حثّني على ركوب العربة والذهاب إلى المدينة لأجد نفسي في بيتك الذي كان في تلك اللحظة قد أصبح فارغاً؟ ماذا عرفتُ في اليوم السابق، خلال رحلة الصيد؟ ألم تكن ثمّت إشارة تشي بك؟ ألم يكن هناك خبر وثيق، إخطار، معلومة تقول لي بأنك تتهيأ للهروب؟ كلا، لقد صمت الجميع، حتى نيني: هل تتذكر المرضعة العجوز؟ إنها تعرف كل شيء عنا. هل ما زالت حية؟ نعم، ما زالت حية، على طريقتها. حية مثل هذه الشجرة القائمة أمام النافذة، التي زرعها والد جدي. لها وقتها، الوقت المحدد لها، مثل أي كائن حي، الوقت المخصص لها في الحياة. هي كانت تعلم، لكنها لم تقل شيئاً. لقد كنت وحيداً تماماً خلال تلك الأيام. مع ذلك عرفت أن تلك كانت اللحظة التي نضج فيها كل شيء للتو، تكشّف فيها كل شيء؛ اللحظة التي وجدنا جميعاً مكاننا،

أنت، أنا والجميع. نعم، لقد عرفت ذلك كله خلال رحلة الصيد ـ قال مستدعياً الذكريات وكأنه يجيب على سؤال صاغه بنفسه مراراً. ثم صمت.

- أي شيء عرفته في رحلة الصيد؟ ـ سأل كونراد.

- كانت رحلة صيد رائعة ـ قال بصوت دافئ تقريباً كمن يعيد الحياة لذكريات رائعة بكل تفاصيلها ـ آخر رحلة صيد تمّت في هذه الغابات. في تلك الحقبة كان ما زال هناك صيادون حقيقيون. ربما مازال يوجد، لا أعلم. بالنسبة لي كانت آخر رحلة صيد في غاباتي. منذ ذلك الحين يجيء رجال مع بنادقهم الخاصة، مدعوون على أن يستقبلهم الصياد الذي يعمل لدي ويطلقون النار من بنادقهم في الغابات. الصيد، الصيد الحقيقي هو شيء آخر: أنت لا تستطيع إدراك ذلك، لأنك لم تكن صياداً قط. بالنسبة لك كان مجرّد واجب، واجب عسكري ونبيل، مثل ركوب الخيل أو المشاركة في الحياة الاجتماعية. تذهب للصيد، لكن مثل من يذعن للشكلية الاجتماعية فحسب. تحمل السلاح بطريقة مهملة كما لو أنه عصا أو قصبة. لا تعرف ذاك الشغف الغريب والأكثر سريّة من أي شغف آخر في حياة الرجل، الذي يختبئ في ما بعد الأوراق، الألبسة التكرية والتعليم، في أعصاب كل رجل، في أعمق مكنوناته، مثلما تختبئ النار الأبدية في أعماق الأرض. إنه شغف القتل. نحن كائنات إنسانية والقتل بالنسبة لنا هو قانون الحياة. لانستطيع تفاديه. نقتل لأجل الدفاع، نقتل لكي نفلح، نقتل لأجل الانتقام. أتضحك؟ أتضحك بازدراء؟ لقد تحولت إلى فنان وكل هذه الغرائز المنحطة والمتوحشة أصبحت عندك أكثر تهذيباً؟ هل تعتقد بأنك لم تقتل قط أي كائن حيّ؟ لا تكن متأكداً هكذا ـ حكم بصرامة وتجرّد ـ جاءت الليلة التي لا معنى

للكلام فيها عن أي شيء آخر سوى عن الحقيقة، عما هو جوهري، إذ ليس لهذه الليلة ما يليها، ربما لم يعد ثمّت ليال وأيام كثيرة تالية... أريد القول أنه ولا بأي حال سيكون هناك يوم أو ليلة لهما أهمية حقيقية بعد هذه الليلة. ربما تتذكر بأنني أنا أيضاً سافرت إلى الشرق: خلال شهر العسل مع كريستينا. سافرنا بين عرب، وفي بغداد دعينا من قبل عائلة عربية. إنهم أناس في منتهى النبل. وأنت الذي جبت العالم تعرف ذلك جيداً. اعتزازهم، فخرهم، سلوكهم، طبيعتهم الشغوفة، سكينتهم، انضباط أجسادهم، وعيهم لحركاتهم ذاتها، ألعابهم وعيونهم التي لا تكف أبداً عن اللمعان، كل ذلك يعكس فيهم نبلاً من الطراز القديم، يشبه نبل الأسلاف، حين أدرك الإنسان مقامه أثناء فوضى الخلق. حسب بعض النظريات فإن الجنس البشري انبثق من هذه الأمكنة، في أعماق العالم العربي، في بداية الأزمنة، قبل أن تنبثق الشعوب، القبائل والحضارات. لذا يشعرون ربما بالاعتزاز. لست أدري. لاأفهم كثيراً في هذه الأمور... لكن، نعم أفهم ما يعني الاعتزاز، بالطريقة ذاتها التي يشعر بها الناس دون الحاجة إلى دلالات خارجية، حين يكونون من الدم ذاته والسلالة ذاتها، شعرت في الأسابيع التي قضيتها في الشرق بأنهم جميعاً كانوا أفراداً من النبلاء، حتى آخر رعاة الإبل الرثين. كما قلت لك، عشنا في بيت عربي، بيت يشبه القصر. كنا ضيوفاً عند عائلة عربية بتوصية من سفيرنا. تلك البيوت المنعشة والبيضاء... هل تعرفها؟ الفناء الداخلي، حيث تقضي العائلة والقبيلة حياتها هو السوق، البرلمان والمعبد في الوقت ذاته. حركاتهم تعكس الكسل ورغباتهم الدائمة والملحة في التسلية. خلف كسلهم الأنيق والعدواني تختبئ الرغبة في العيش وبالشغف، مثلما تختبئ الأفاعي خلف

الحجارة الساكنة، مغمورة بالشمس. استقبلوا ذات ليلة ضيوفاً على شرفنا، ضيوفاً عرباً. حتى تلك الليلة كان سلوكهم معنا على الطريقة الأوروبية، إذ أن مضيفنا كان قاضياً ومهرّباً، أحد الرجال الأكثر ثراء في مدينته. غرف الضيوف كانت مكسوة بالأثاث الإنكليزي، وحوض الحمّام كان من الفضة. مع ذلك، في تلك الليلة رأينا شيئاً مختلفاً جداً. وصل الضيوف بعد الغروب. كانوا جميعهم رجالاً، سادة مع خدمهم. النار تضطرم في وسط الفناء ويرتفع منها دخان كريه الرائحة، دخان نافذ يتصاعد من الصِلاء التي يغذونها بروث الجمال. جلسنا جميعاً حول النار دون التفوه بكلمة. كريستينا كانت المرأة الوحيدة بيننا. أحضروا بعد ذلك حملاً، حملاً أبيض؛ أخرج المضيف مديته وذبحه بحركة لا يمكن نسيانها. هذه الحركة لا يمكن تعلمها؛ هذه الحركة الشرقية مازالت تحتفظ بشيء من المغزى الرمزي والديني لفعل القتل من الزمن الذي كان فيه هذا الفعل يعني الاتحاد مع شيء جوهري في الضحية. بهذه الحركة رفع إبراهيم مديته لينحر إسحاق في لحظة التضحية؛ بهذه الحركة كانت تقوم أضاحي الحيوانات في مذابح المعابد القديمة أمام صور الأوثان والآلهة؛ بهذه الحركة أيضاً قطع رأس يوحنا المعمدان... إنها حركة موروثة عن الأسلاف. كل رجال الشرق يحملون هذه الحركة بأيديهم. ربما ولد الإنسان مع هذه الحركة أثناء انفصال ذلك الكائن الوسط الذي كان، عن ذلك الكائن بين الإنسان والحيوان... حسب بعض الأنتروبولوجيين فإن الإنسان ولد مع المقدرة على طي إبهامه، وهكذا استطاع القبض على سلاح أو أداة. حسناً، ربما بدأت في الروح وليس في أصبع الإبهام، لا أستطيع معرفة ذلك. الشيء الذي حدث هو أن ذلك العربي الذي ذبح الحمل تحول من عجوز بدثار أبيض ناصع إلى

كاهن شرقي يقدّم أُضحية. التمعت عيناه واستعاد شبابه فجأة وخيّم صمت قاتل من حوله. كنا جالسين حول النار ننظر إلى حركة القتل تلك، لمعان المدية الجسد المحتضر للحمل، الدم المتدفق، والبريق ذاته في عيوننا جميعاً. أدركت حينئذٍ أن أولئك الرجال ما زالوا يعيشون قريبين من فعل القتل: الدم شيء معروف لديهم، بريق المدية هو ظاهرة طبيعية مثل ابتسامة امرأة أو وميض المطر. أدركنا في تلك اللحظة (أعتقد أن كريستينا أيضاً أدركت ذلك، لأنها كانت صامتة جداً في تلك اللحظات، لقد توردت ثم أصبحت شاحبة وكانت تتنفس بصعوبة، مالت برأسها إلى جهة وكأنها تتأمل دون إرادة منها مشهداً شغوفاً وحسيّاً)، أدركنا أنهم ما زالوا في الشرق يعرفون المعنى المقدس والرمزي للقتل، وكذلك معناه الخفي والحسي، لأنهم جميعاً كانوا يبتسمون، كل أولئك الرجال بسحناتهم الغامقة وملامحهم النبيلة فاغرو الأفواه وهم ينظرون بتعبير ينمّ عن النشوة والذهول، وكأن القتل هو شيء دافئ، شيء جيد، شيء يشبه التقبيل. ياللغرابة! فهاتان الكلمتان في اللغة الهنغارية، قتل وقبلة، ölés و ölelés هما متشابهتان ولهما الجذر ذاته. هكذا هو الأمر. طبعاً، نحن غربيون - واصل بنبرة أخرى، معدلة قليلاً وكأنه يملي محاضرة - نحن غربيون أو على الأقل قدمنا إلى هنا واستقرينا. بالنسبة لنا القتل هو شأن حقوقي وأخلاقي أو شأن طبي، أو فعل مسموح به أو ممنوع، ظاهرة محددة ضمن نظام محدد بدقة من وجهة نظر حقوقية وأخلاقية. نحن أيضاً نقتل، لكننا نفعل ذلك بطريقة أكثر تعقيداً: نقتل حسبما يفرض ويسمح به القانون. نقتل باسم المُثُل العليا وباسم الدفاع عن ممتلكات ثمينة، نقتل لكي نصون نظام التعايش الإنساني. لايمكن القتل بشكل آخر. نحن مسيحيون نملك

الشعور بالذنب وتربيتنا هي في كنف الثقافة الغربية. تاريخنا القديم والحديث ممتلئ بالقتل الجماعي، لكننا نخفض صوتنا ورؤوسنا ونتكلم حول ذلك بالوعظ والتبكيت، لانستطيع تفادي ذلك، هذا هو الدور الذي من شأننا لعبه. بالإضافة إلى ذلك، فإن الصيد، الصيد فحسب - أضاف بنبرة أخرى، بهيجة تقريباً - في رحلات الصيد نحترم أيضاً بعض القوانين الفروسية والعملية، نحترم الحيوانات البرية إلى الحد الذي تتطلبه تقاليد المكان، لكن الصيد ما زال أُضحية، أو لنقل، البقية المشوهة والطقسية لفعل ديني موروث عن الأسلاف، لفعل بدائي من عصر ولادة الإنسان، لأنه ليس صحيحاً أن الصياد يقتل للحصول على الطريدة. لم يقتل من أجل ذلك قط، حتى ولا في عصر الإنسان البدائي، مع أنه يتغذى حصرياً تقريباً مما كان يصطاده. يرافق الصيد دائماً طقس قبلي وديني. الصياد الماهر كان دائماً الرجل الأول في القبيلة، كمثل راهب. طبعاً كل ذلك فقد من قوته مع مرور الزمن. مع ذلك، بقيت الطقوس، رغم ضعفها. ما يتعلق بي أستطيع القول بأنني ربما لم أستمتع بشيء قط مثلما استمتعت في تلك الأصباح الباكرة، أصباح الصيد تلك. يستيقظ المرء والوقت ما زال ليلاً، يرتدي ثيابه بطريقة خاصة، بطريقة مختلفة عن الأصباح الأخرى، يرتدي ثياباً بسيطة مختارة بعناية، يتناول فطوره بطريقة أخرى، ولكي يبعث القوة في قلبه يتناول كأساً صغيرة من الخمر، يأكل قليلاً من اللحم المقدد البارد في صالة الطعام المضاءة بفانوس. تعجبني حتى رائحة ثياب الصيد، قماشها يتضوع برائحة الغابة، بأوراق الأشجار، بالهواء المنعش وبالدم، الدم المسفوح من الطيور التي كانت تعلق في الخصر. دمها كان يوسخ دائماً جعبة الصيد، لكن هل الدم يوسخ حقيقة؟ هل هو وسخ؟ لا

أعتقد ذلك. إنه المادة الأكثر نبلاً الموجودة في هذا العالم، والإنسان حين يريد أن يقول شيئاً مهمّاً لربه، شيئاً لا يمكن التعبير عنه، يقوله دائماً بالدم وبالأضاحي. تعجبني أيضاً رائحة المعدن والشحم للبنادق، رائحة الزنخ في عدة الصيد الجلدية ـ قال بخجل تقريباً كعجوز يعترف بضعف ما لديه ـ تخرج بعد ذلك إلى فناء البيت بينما الرفاق ينتظرون، الشمس لم تشرق بعد، والصياد وهو يربط الكلاب يقدم لك موجزاً عن الليلة السابقة. حينئذٍ تصعد إلى العربة وتمضي. المشهد يبدأ بالاستيقاظ، وتتمطى الغابات وكأنها تزيل النعاس عنها بحركات بطيئة وكسولة. رائحة كل شيء توحي بالنظافة وكأنك عائد إلى بلد آخر، إلى بلد كان وطنك في بداية الأزمنة. تتوقف العربة على طرف الغابة، تترجل، يرافقك صيادك وكلبه بصمت. لا يصدر أي صوت عن أوراق الأشجار الرطبة تحت قدميك. الدروب ممتلئة بآثار الحيوانات. كل شيء يستعيد الحياة من حولك. الضوء يفتح قبة الغابة وكأن أداة سرية، ميكانيزم خفي لمسرح العالم، يبدأ بالعمل. تبدأ العصافير بالغناء، أيل صغير يركض في درب بعيد، على مسافة ثلاثمئة خطوة، فتختبئ خلف دغل بكل انتباهك. تحضر الكلب فأنت لا تستطيع مطاردة الأيل. يتوقف الحيوان فهو لا يرى ولا يشتمّ شيئاً، لأن الهواء يأتي من جهته، لكنه يعرف أن نهايته قريبة؛ يرفع رأسه، يدير رقبته اللدنة، يتوتر جسده ويمكث هكذا لبضع ثوان في وضعية رائعة كأنه مشلول، مثل الرجل الذي يقف مشلولاً أمام مصيره، ساكناً ومدركاً أن المصير ليس مصادفة ولا حادثاً، إنما نتيجة طبيعية لبعض الأحداث المترابطة، غير المتوقعة والعصية على الإدراك. في تلك اللحظة تتأسف أنك لم تحضر أفضل سلاح ناري لديك. أنت الصياد تقف مشلولاً أيضاً وسط الدغل.

تشعر بارتجافة في يديك موروثة عن الأسلاف وقديمة قدم الإنسان ذاته، استعدادك للقتل، الجاذبية الطافحة بالتحريم، الشغف الأكثر قوة، نبض لا هو جيد ولا هو سيئ، النبض السري الأكثر قوة من أي شيء: أن تكون أكثر قوة من الآخر، أكثر براعة، حاذقاً كمعلم، ألا تخطيء. هذا ما يشعر به الفهد حين يتهيأ للقفز، الأفعى حين تنتصب بين الصخور، الكوندور حين ينقّض من الأعالي والإنسان حين يتأمل طريدته. هذا بالذات ماشعرت به، ربما للمرة الأولى في حياتك، حين في تلك الغابة، في نقطة الكمين تلك، رفعت سلاحك وصوبت نحوي كي تقتلني.

انحنى فوق الطاولة الصغيرة الموجودة بينهما أمام الصوفا، قدّم لنفسه كأساً صغيراً من الليكور، تذوّق السائل ذا اللون الأرجواني بطرف لسانه ثم أعاد وضع الكأس فوق الطاولة برضا.

14

كان الوقت ما زال ليلاً ـ تابع حين رأى أن الآخر لم تنمّ عنه أية ردة فعل، لم يحتج، لم يعط أي إشارة توحي بأنه سمع الاتهام، إيماءة من يده أو اختلاجة جفن ـ كانت اللحظة الدقيقة التي تفصل الليل عن النهار، العالم السفلي عن العالم العلوي، ربما كانت هناك أشياء أخرى أيضاً تنفصل عن بعضها في تلك اللحظات. يتعلق الأمر بتلك الثانية الأخيرة التي تكون فيها الأشياء الدنيا متحدة مع العليا، الضوء والظلمة في عالم الإنسان، كما في الكون؛ حين يستيقظ النائمون من كوابيسهم، حين يتنفس المرضى الصعداء لأنهم يشعرون بانتهاء جحيم الليل اعتباراً من تلك اللحظة فإن آلامهم ستكون منظمة أكثر ومفهومة أكثر؛ إنها اللحظة التي يتجلى فيها انتظام وشفافية النهار وينفصل عما كان في عتمة الليل مجرد رغبة حارة، توق سرّي، شغف مرضي ومرعب. تلك اللحظة تروق للصيادين وللحيوانات البرية على السواء. لم يعد ليلاً، لكنه ليس نهاراً كذلك. روائح الغابة كثيفة ووحشية في تلك اللحظات؛ وكأن كل الكائنات الحيّة تبدأ بالاستيقاظ دفعة واحدة في صالة نوم العالم، وكأنهم ينشرون أسرارهم وشرورهم: النباتات، الحيوانات وكذلك الكائنات الإنسانية. تستيقظ ريح خفيفة مثلما يستيقظ أحد ما مع شهيق وزفير كي يتوافق مع العالم الذي ولد فيه. أوراق الأشجار الرطبة، السرخس، قشور الأشجار المرمية والمغطاة بالطحلب، درب الغابة المغطى بأكواز الصنوبر المتفسخة، الأوراق الذابلة وإبر الصنوبر التي تشكل سجادة لدنة، زلقة ومتسقة، طافحة بالندى وتنبعث منها

رائحة الأرض المثملة مثل عطر الأجساد الشغوفة المتعرقة للعشاق. إنها لحظة غامضة احتفى بها الوثنيون القدماء بورع وسط الغابات، احتفوا بأيادٍ مرفوعة ووجوه متجهة صوب الشرق في انتظارٍ سحري كي تشرق مرة تلو الأخرى في قلوب الكائنات الإنسانية، التواقة إلى انبعاث النور، أي العقل والمعرفة. تقترب الحيوانات البرية من النبع كي تشرب. الليل لم ينته بعد، في الغابة ما زالت تحدث أشياء، إنها مرحلة الاحتراس، ترقّب فريسة الصيد التي تكرسها الحيوانات البرية في الليل لم تنته بعد: القط البري يتابع ترصّده، الدب يلتهم القضمة الأخيرة من فريسته، الأيل في فترة السفاد يتذكر لحظات الوصال في الليالي المقمرة، يتوقف وسط المرج حيث تعارك من أجل السفاد، يرفع فخوراً رأسه اللزج والجريح ناظراً حوله بعينيه الحمراوين المتهيجتين، الرصينتين والحزينتين، مثل من يتذكر عاطفة مشبوبة خالدة. الليل ما زال حيّاً في الغابة، الليل بكل ماتخفيه هذه الكلمة: الطريدة، السفاد، الذهاب والإياب، الوعي بالبهجة السارة في العيش وبالنضال من أجل الحياة. إنها اللحظة التي تحدث فيها أشياء ليس فقط في أعماق الغابة، إنما أيضاً في العمق المظلم للنفوس البشرية. لأن النفوس البشرية لها أيضاً لياليها الطافحة بالشغف الوحشي مثل الولع بالغزو والصيد الذي يعشش في قلب الأيل أو الذئب. الحلم، الرغبة، الزهو، عبادة الذات، غضب الذكر المتعطش للمتعة، الحسد، الانتقام، كل العواطف تعشش في ليل الروح البشرية، المتربصة دائماً، مثل الثعلب، النسر أو ابن آوى في ليل صحارى الشرق. ثمت لحظات أيضاً ليست هي ليل ولا هي نهار في القلوب البشرية، لحظات تخرج فيها الحيوانات المتوحشة من مخابئها، من جحور الروح وترتعش في قلوبنا وتتحول بحركة من يدنا إلى عاطفة نحاول ترويضها عبثاً خلال

سنين كثيرة. كل شيء كان عبثاً: لقد رفضنا، دون أدنى أمل، حتى من أنفسنا، معنى هذه العاطفة، لكن المحتوى الحقيقي للعاطفة كان أكثر قوة من نوايانا، ولم تتبدد العاطفة، إنما تبلورت. في عمق كل علاقة إنسانية توجد مادة ملموسة، وهذه الحقيقة لاتتغيّر مهما استخدمنا من حجج ودهاء. الحقيقة هي أنك كنت تكرهني، أنك كرهتني خلال اثنين وعشرين عاماً باندفاع تتميز حماسته فقط في العلاقات الأكثر كثافة مثل.. نعم، مثل الحب. كنت تكرهني، وحين يستولي إحساس أو عاطفة بشكل كامل على الروح الإنسانية إلى جانب الحماس فإن الرغبة بالانتقام تضطرم أيضاً، لأن العاطفة لا تعرف لغة العقل ولا حججه. فالعاطفة لا تكترث أبداً بما يتلقاه الشخص الآخر: تريد إظهار نفسها بشكل كامل، تريد أن تمارس إرادتها حتى إذا لم تتلق مقابل ذلك سوى مشاعر رقيقة، سلوك لائق، صداقة وصبر. كل العواطف العظيمة هي عواطف يائسة: ليس لديها أي أمل، لأنها في هذه الحالة لن تكون عواطف، إنما اتفاقات، صفقات عقلانية، تجارة لا أهمية لها. كنت تكرهني، وكرهك كان آصرة قوية وكأنك كنت تحبني. لماذا كنت تكرهني؟ كان لدي ما يكفي من الوقت كي أحلل هذا الإحساس. لم تقبل مني نقوداً قط، ولا هدايا، ولم تسمح بأن تتحول صداقتنا إلى أخوّة حقيقية، ولو لم أكن فتياً في تلك المرحلة لاستطعت أن أنتبه إلى أن ذلك أمارة مريبة وخطرة. من لا يقبل بالأجزاء فعلى الأرجح يريد كل شيء، كل شيء على الإطلاق. كنت تكرهني منذ الطفولة، منذ اللحظة الأولى التي تعارفنا فيها في تلك الأكاديمية المميزة جداً حيث يحسّنون هناك ويروضون القدوة المختارة من العالم الذي نعرفه؛ كنت تكرهني لأنني أملك شيئاً أنت تفتقده. ما

هو؟ أية مهارة؟ أي ملمح للسجية؟ كنت دائماً الأكثر ثقافة، الفنان، الأكثر اجتهاداً، الأكثر عفة، الذي يملك موهبة، الذي يملك آلة موسيقية، الذي يملك سراً وبالإضافة إلى ذلك حرفياً: سرك كان الموسيقى. أنت من أقارب شوبان، أنت الغامض، الفخور. لكن في أعماق روحك يسكن انفعال متشنج، رغبة دائمة، الرغبة في أن تكون مختلفاً عما أنت عليه. إنها أكبر مأساة يمكن للقدر أن يعاقب بها شخص ما. الرغبة في أن نكون مختلفين عما نحن عليه: لا يمكن للقلب الإنساني أن ينبض برغبة أكثر ألماً. لأن الحياة لايمكن تحمّلها بشكل آخر ونحن ندرك قناعتنا بما نعني لأنفسنا وللعالم. يجب أن نمتثل لما نحن عليه وأن نكون مدركين أننا لن نحصل على أية مكافأة مقابل ذلك من الحياة: لن يضعوا فوق صدورنا أوسمة لأننا نعلم ونقبل بغرورنا، بأنانيتنا، بأن نكون مكرشين أو صلعاء؛ كلا، علينا أن نعلم بأننا لن نحصل على أوسمة أو مكافأة لأجل ذلك. علينا تحمّل ذلك، هذا هو السر الوحيد. علينا تحمل طبائعنا ومزاجنا، إذ أن عيوبهما، الأنانية والجشع لا يستطيعان تبديل تجربتنا أو إدراكنا. علينا تحمل رغباتنا التي ليس لها دائماً وقع في العالم. علينا تحمل الأشخاص الذين نحب ولا يحبوننا دائماً أو لا يحبوننا كما نرغب. علينا تحمل أن الخيانات وعدم الوفاء، وما هو أصعب من كل شيء: أن يكون هناك شخص محدد متفوق علينا بسماته الأخلاقية والعقلية. هذا ماتعلمته خلال خمسة وسبعين عاماً من حياتي هنا، وسط هذه الغابة. لكن أنت لم تستطع تحمّل ذلك ـ قال بصوت خفيض.

صمت، نظر في الفراغ بعينيه الحسيرتين ثم تابع وكأنه يبحث عن عذر:

- طبعاً حين كنا ما زلنا فتياناً لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك. كان زمناً بديعاً، حقبة سحرية. إن ذاكرة الشيخوخة تضفي البهاء على كل شيء وتبرز كل تفصيل بوضوح مطلق. كنا طفلين وكنا صديقين، وهذه هدية عظيمة من الحياة ونشكر القدر على استمتاعنا بها. مع ذلك، فيما بعد، حين تكونت سجيتك، لم تعد تحتمل أن ما تفتقده أنت أمتلكه أنا: أصولي، تربيتي، هبة إلهية ما.. ما هي تلك الكفاءة؟ وهل كان الأمر يتعلق بكفاءة ما؟ الأمر يتعلق ببساطة أن العالم كان ينظر إليك بلا مبالاة، وأحياناً حتى بعدوانية، بينما يمنحني الناس الابتسامات والثقة فحسب. أنت كنت تحتقر تلك الثقة والصداقة اللتين كان يقدمهما لي العالم، كنت تحتقرهما وفي الوقت ذاته تغار منهما حتى الموت. من المؤكد أنك كنت تتصور (ليس بطريقة بيّنة بالطبع، إنما عبر أحاسيس ملتبسة) بأن الشخص المدلل والمحبوب من قبل العالم لديه شيء من العهر. ثمّت أشخاص يودهم الجميع، والجميع يمنحهم الابتسامة، الجميع يدللونهم ويتسامحون معهم، وهؤلاء الأشخاص بوجه عام لديهم شيء من الغنج، شيء من العهر. كما ترى لم يعد لدي وجل من الكلمات. قال بابتسامة مشجعة وكأنه يريد إقناع الآخر بأنه هو أيضاً غير وجل. يعرف المرء كل شيء في العزلة، ولم يعد لديه خوف من أي شيء. الأشخاص الذين تتألق على جباههم أمارة إلهية تبيّن بأنهم محميين من الآلهة، يعرفون بأنهم كائنات مختارة ولذا لديهم شيء من الزهو والثقة المفرطة بالنفس في طريقة تقديم أنفسهم أمام الآخرين. إذا كنت تراني على هذه الصورة فأنت مخطئ. غيرتك فحسب هي التي دفعتك إلى تصوري بهذا الشكل المشوّه. لا أحاول الدفاع عن نفسي، لأنني أريد معرفة الحقيقة، والذي يبحث عن الحقيقة عليه أن يبدأ بالبحث في

داخله. ما كنت تفسره على أنه نعمة، على أنه هبة إلهية لديّ لم يكن شيئاً آخر سوى الكرم. لقد كنتُ كريماً حتى اليوم الذي... نعم، حتى اليوم الذي كنتُ فيه في بيتك، وكنتَ قد هربت للتو. ربما هذا الكرم هو الذي حثّ الناس على إظهار مشاعرهم تجاهي، على الإغداق في ميلهم نحوي، على ابتساماتهم وثقتهم. نعم، كان لدي شيء (أتكلم عن الماضي، لأن كل ما آتي على ذكره هنا والآن قد أصبح قصيّاً وكأنني أتكلم عن شخص ميت أو شخص لم أتعرف عليه قط)، كان لدي عفوية وصدق جعلا الناس يستسلمون لي. هناك حقبة في حياتي، عقد مرحلة الصبا، حيث العالم تحمّل حضوري ورغباتي بصدر رحب ودماثة. يتعلق الأمر بحقبة من الرأفة. يأتي الجميع للقائك وكأنك تستميل قلوبهم، يسعى الجميع إلى تكريمك بالنبيذ، بالفتيات وبأكاليل الأزهار. خلال العقد الذي خدمنا فيه بالجيش، بعد انتهائنا من الأكاديمية، لم يفارقني قط ذلك الشعور بالأمان، بالقناعة بأن الآلهة منحتني خاتم الحظ، السري واللامرئي؛ بأنه لا يمكن أن يحدث لي أي سوء، بأنني كنت محاطاً بمشاعر الحب والثقة. هذا أقصى ما يمكن لكائن إنساني أن يحصل عليه في الحياة - أضاف بجدية - إنها نعمة عظيمة. لكن من يملك الثقة، من يصبح متعجرفاً أو متغطرساً، من لا يستطيع تحمّل دعوة القدر بتواضع، من لا يشعر بأن هذه الحالة من النعمة تدوم فقط طالما لا تهدر هدية الآلهة، فهو الخاسر. العالم يغفر فقط، ومؤقتاً فقط، للذين قلوبهم نقية ومتواضعة. أي أنك تكرهني - أكد بحزم شديد - عند انتهاء مرحلة الصبا أخذ سحر الطفولة يتلاشى، وعلاقتنا بدأت تصبح فاترة. ما من سيرورة نفسية أكثر حزناً، أكثر يأساً مثل التي تهمد فيها الصداقة بين رجلين. لأن كل شيء بين الرجل

والمرأة له شروط مثل المساومة في السوق، لكن المعنى العميق للصداقة بين الرجال هو تماماً الإيثار على النفس: ألا نريد تضحية من الآخر، ألا نريد رفقته، ألا نريد أي شيء على الإطلاق، فقط المحافظة على انسجام التحالف دون كلمات. ربما كنت أنا نفسي المسؤول، إذ أنني لم أكن أعرفك كفاية. رضيت بأنك لم تكشف لي عن كل ما لديك، أعجبت بذكائك، ذلك التفوق المر والمميز الذي كان ينبعث من كيانك، اعتقدت بأنك أنت أيضاً تسامحني مثل الآخرين على كوني أملك تلك الموهبة في التقرب من الناس بيسر وهدوء، تلك الموهبة التي تجعلني محبوباً هناك حيث يتغاضون عنك فحسب؛ اعتقدت أنك تغفر لي مخاطبتك بصيغة المفرد أمام العالم. اعتقدت أن ذلك يسعدك. صداقتنا كانت مثل الصداقة بين الرجال في الأساطير القديمة. بينما كنتُ أمضي في الطرقات المشمسة في العالم، كنتَ أنت تبقى في الظل، عن عمد. لست أدري إذا كان رأيك مماثلاً...

- ألم تكن تتكلم عن رحلة الصيد؟. سأل الضيف محاولاً عدم الإجابة.

- نعم، عن رحلة الصيد - قال الجنرال - لكن كل ذلك له علاقة برحلة الصيد. حين يريد شخص قتل شخص آخر فهذا يعني أن ثمّت أموراً كثيرة حدثت قبل ذلك وليس فقط لأن هذا الشخص يلقم سلاحه ويرفعه عليه. قبل ذلك حدث كل ما كنت أحدثك عنه: أنك لم تستطع مسامحتي وأن علاقتنا تردّت؛ علاقة ولدت في أعماق ماء الطفولة بطريقة شديدة التعقيد والرسوخ وكأن هذين الفتيين كانا يرعيان تويجات الأزهار الهائلة الحجم في حكايات هادس السحرية، تويجات "فيكتوريا ريخيا"، هائلة مثل مهد الأحلام؛ لست أدري إذا كنت تتذكر بأنني

زرعت في الدفيئة واحدة من تلك النباتات الغامضة التي تزهر مرة واحدة فقط في العام؛ وقد تردّت علاقتنا. لقد انتهى زمن الطفولة والشباب السحري وظل رجلان راشدان تربطهما أواصر علاقة حساسة وغامضة، علاقة تسمى عادة صداقة. من الملائم معرفة ذلك أيضاً قبل الحديث عن رحلة الصيد. لأن لحظة رفع السلاح لقتل أحد على الأرجح ليست هي لحظة الإثم القصوى. الإثم كان موجوداً قبل ذلك، الإثم كائن في الطوية. وإذ أقول أن تلك الصداقة قد تردّت فعليّ أن أعرف إذا ما كانت قد ساءت حقاً وما السبب أو من هو السبب. لأننا كنا مختلفين، لكن كنا متحدين، أنا كنت مختلفاً عنك، لكننا كنا نكمل بعضنا بشكل جيد، لقد شكلنا تحالفاً، عقدنا ميثاقاً بين رجال، وهذا أمر نادر في هذه الحياة. إن كل ما كان ينقصك أثناء تحالفنا في مرحلة الصبا كنت أكمله بما منحني إياه العالم. نحن كنا أصدقاء ـ قال بصوت مرتفع جداً ـ أدرك ذلك إن كنت لا تعلم بعد. طبعاً أنت تعلم، يجب أن تكون قد اكتشفت ذلك من قبل أو من بعد، في المنطقة الاستوائية أو في أي مكان آخر. كنا أصدقاء، وهذه الكلمة لها معان مسؤولياتها لا يعرفها سوى الرجال. عليك أن تكون واعياً للمسؤولية المطلقة التي تحتوي عليها هذه الكلمة. كنا أصدقاء وليس زملاء أو رفاق. كنا أصدقاء، وما من شيء في العالم يعوّض عن الصداقة. ولا حتى العاطفة الضارية تستطيع أن تقدم كل ذلك الرضا مثل صداقة صامتة ورزينة للذين حالفهم الحظ ولامستهم قوتها. لأنه لو لم نكن، أنا وأنت، أصدقاء لما رفعت السلاح عليّ في ذلك الصباح في الغابة خلال رحلة الصيد. ولو لم نكن أصدقاء لما ذهبتُ إلى بيتك في اليوم التالي، ذلك البيت الذي لم تدعني إليه قط، حيث كنت تحتفظ بسرك، سر

خبيث وغير مفهوم والذي سمم صداقتنا. لو لم تكن صديقي لما هربت في اليوم التالي من هذه المدينة، مني، من ساحة الجريمة مثل قاتل، مثل لص، إنما كنت بقيت هنا تخدعني وتخونني، وربما كل ذلك كان سيسبب لي الألم ويجرح غروري وكبريائي، لكنه لن يكون بهذه الفظاعة التي فعلت وذلك لكونك صديقي. لو لم نكن، أنا وأنت، أصدقاء لما عدت بعد واحد وأربعين عاماً مثل القاتل، اللص الذي يعود إلى مكان الجريمة. لأنه كان عليك أن تعود، كما ترى. وعليّ أن أقول لك الآن شيئاً تأخرت في إدراكه، لأنني لم أصدقه ورفضته أمام نفسي؛ عليّ أن أقدّم لك مفاجأة فظيعة ،اعترافاً: أنت وأنا ما زلنا أصدقاء. يبدو أنه ما من قوة خارجية تستطيع تغيير العلاقات الإنسانية. أنت قتلت شيئاً في داخلي، حطمت حياتي، وأنا ما زلت صديقك. وأنا الآن، في هذه الليلة أقتل شيئاً في داخلك ثم أتركك تذهب إلى لندن، إلى المنطقة الاستوائية أو إلى الجحيم، وستبقى صديقي. علينا أن نكون واعين لكل هذا قبل الكلام عن رحلة الصيد وعن كل ما أعقب ذلك. لأن الصداقة ليست حالة مزاجية مثالية. الصداقة هي قانون إنساني شديد الصرامة. كان في القدم القانون الأكثر أهمية وعلى أساسه استند النظام القضائي للحضارات العظمى. إن هذا القانون، قانون الصداقة، يتخطى العواطف والأنانية وهو الغالب في قلوب الرجال. إنه أكثر قوة من العاطفة التي توحّد الرجال والنساء بقوة يائسة؛ الصداقة لا يمكن أن تقود إلى الخداع، إذ في الصداقة لا يأمل المرء شيئاً من الآخر؛ يمكن قتل صديق، لكن الصداقة التي نشأت في الطفولة بين شخصين لا يمكن قتلها، حتى الموت ذاته لايمكنه قتلها، إذ أن ذكراها ستبقى في وعي الرجال مثلما تبقى ذكرى مأثرة بطولية لا يمكن التعبير عنها

بالكلمات. هكذا هو الأمر، الصداقة هي مأثرة ،في المعنى القدري والصامت للكلمة، حيث لا تسمع صليل السيوف: مأثرة، مثل أي سلوك آخر ينطوي على النزاهة. صداقتنا كانت هكذا، وأنت كنت تعي ذلك. ربما وصلت صداقتنا في اللحظة التي رفعت فيها السلاح عليّ كي تقتلني إلى ذروتها واكتسبت قوة لم تصلها خلال اثنين وعشرين عاماً في مرحلة شبابنا. أنت تتذكر بالتأكيد تلك اللحظة، لأنها كانت مذ ذاك فحوى ومحتوى حياتك. أنا أيضاً أتذكرها. كنا واقفين بلا حراك وسط الغابة بين أشجار الصنوبر، في النقطة التي يبدأ فيها المنحدر، بعيدة عن الطريق وتقود إلى العمق السحيق، حيث الغابة تعيش حياتها الخاصة، عذراء ومعتمة. كنت أمشي أمامك ثم توقفت، إذ في البعيد، على مسافة ثلاثمئة خطوة، ظهر من بين أشجار الصنوبر أيل. كان الصبح قد بزغ ببطء شديد وكأن الشمس تتحسس بأشعتها طريدتها والعالم، توقف الأيل على حافة المنحدر ورفع رأسه ناظراً إلى المكان الأشد كثافة في الغابة، لأنه أحس بالخطر. الغريزة، هذه المعجزة ،هذه الحاسة السادسة الأكثر إرهافاً والأكثر دقة من حاسة السمع أو الرؤية، بدأت تعمل في أعصاب الحيوان. لم يستطع رؤيتنا، النسمة الصباحية كانت تهب من الاتجاه المعاكس، وهكذا لم يستطع استثارة حساسيته تجاه الخطر، نحن كنا متوقفين دون حراك، لأن الصعود أرهقنا: أنا كنت أمامك، قريباً من المنحدر، وأنت كنت خلفي عند الحافة بين الأشجار. الصياد ظلّ في الخلف مع الكلاب. كنا وحيدين وسط الغابة في تلك الوحشة المغبشة للفجر، للغابة، للحيوانات المتوحشة، حيث يجد المرء نفسه ضائعاً دائماً، ضائعاً في حياته وفي العالم حتى ولو للحظة واحدة ثم يشعر بأنه منجذب إلى مكان ما يمكن أن يكون بيته، إلى مكان برّي

وخطير، لكنه يستمر في أن يكون بيته الوحيد والحقيقي: الغابة، المياه العميقة، مشهد العالم البدائي. أشعر دائماً بهذه الأحاسيس حين أذهب إلى الصيد، حين أمشي في أكثر الأماكن تشابكاً في الغابة. في تلك المرة رأيت الطريدة، توقفت، أنت أيضاً رأيتها وبقيت على بعد عشر خطوات خلفي. إن الحيوان والصياد في لحظات كهذه حتى الحاسة السادسة تصبح لديهما مرهفة، نكون في منتهى الوعي لظروف محيطنا، نشعر بالخطر حتى في العتمة دونما الحاجة للنظر إلى الخلف. أي موجات، أي عناصر أي أشعة تجلب لنا هذا التحذير؟ لست أدري... الهواء كان نقياً ونظيفاً. النسمة الخفيفة لم تحرك أغصان الصنوبر. مكثت الطريدة في حالة تأهب. لم تتحرك على الإطلاق، كانت مسحورة، إذ في حالة الخطر هناك دائماً شيء من الفتنة والسحر. حين يتوجه القدر صوبنا، بأي شكل كان، وينادينا بأسمائنا، في عمق غمّنا ووجلنا تتألق دائماً جاذبية معينة لأن المرء لا يريد العيش فقط بأي ثمن، إنما يريد أن يعرف ويقبل القدر برمته أيضاً بأي ثمن، حتى على حساب الخوف والدمار. ذلك ما أحسّ به الأيل في تلك اللحظات، أعرف ذلك بكل يقين. أنا أيضاً شعرتُ الشعور ذاته، أعرف ذلك أيضاً بكل يقين. وأنت أيضاً، على بُعد بضع خطوات مني إلى الخلف، شعرتَ بذلك، حين بالفتنة ذاتها التي تملكتني أنا والأيل، هناك، أمامك، على مقربة منك، لقمّت البندقية بصوت خافت وبارد كالذي يصدر عن المعادن النبيلة عند استخدامها لمهمة حتمية وإنسانية. الصوت الذي يصدر عن خنجر حين يصطدم بخنجر آخر، أو عن بندقية إنكليزية جيدة حين تلقّمها لقتل شخص ما. أرجو أن تكون تذكرت تلك اللحظة.

- نعم... - قال الضيف.

- كانت لحظة من خاصيّة الصياد ـ قال الجنرال برضا تقريباً، برضا من يكون مفهوماً. بالطبع كنت الوحيد الذي سمع ذلك الصوت: كان صوتاً مكتوماً إلى درجة أن الأيل لم يستطع سماعه في سكون الفجر، عن مسافة ثلاثمئة خطوة. في تلك اللحظة حدث شيء لا أستطيع إسناده ببراهين أمام القضاء، لكني سأروي لك ماحدث، لأنك أنت تعلم الحقيقة. ما الذي حدث؟ لقد شعرت بحركاتك فحسب، شعرت بما كنت تفعله بدقة وكأنني كنت أنظر إليك. كنت خلفي إلى جهة وعلى مسافة قصيرة. وشعرت بأنك رفعت السلاح، أسندته على كتفك وصوبت نحوي. شعرت بأنك أغلقت إحدى عينيك وأدرت السلاح ببطء باتجاهي. رأسي ورأس الأيل كانا في خط الرمي ذاته وعلى الارتفاع ذاته، أمامك، مع فارق لا يتعدى عشرة سنتيمترات كحد أقصى. شعرت بارتعاشة يديك. وبالدقة التي لا يستطيع سوى الصياد امتلاكها للحكم على الوضع في الغابة، أدركت بأنه من المكان الذي كنت فيه لاتستطيع التصويب على الأيل: أدركت في تلك اللحظة بأن الأمور المتعلقة بالصيد منعكسة في تلك الظروف كانت تهمّني من الناحية الحميمية أكثر من المقومات الإنسانية. أنا خبير في الصيد وأعرف أي زاوية عليك اتخاذها كي تطلق النار على الأيل الذي ينتظر الطلقة من مسافة ثلاثمئة خطوة دون أن يرتاب في شيء. هذا الوضع أوضح لي كل شيء، الموقع الغيومتري للصياد وهدفه أخبراني بما كان يحدث، بضع خطوات إلى الخلف، في قلب رجل. كنت تصوّب نحوي خلال نصف دقيقة، لقد عرفت ذلك بدقة أيضاً، دون ساعة ودون أن أخطئ التقدير ولا بثانية واحدة. في لحظات كهذه يعرف المرء كل شيء. كنت أعلم بأنك لست قناصاً ماهراً، إذ يكفي أن أحرّك الرأس قليلاً لكي يعبر

أزيز الرصاصة من جانبي ويكون لديك إمكانية قتل الأيل. كما كنت أعرف أيضاً بأن حركة واحدة تكفي لكي لا تخرج الطلقة من البندقية. لكن عرفت أيضاً بأنني لا أستطيع الحركة، لأن قدري لم يكن يتعلق بما أقرره في تلك اللحظات: شيء ما كان قد نضج، شيء ما عليه أن يحدث حسب الترتيب والشكل المقرر لهما. كنتُ متوقفاً هكذا منتظراً الطلقة، منتظراً أن تطلق النار وأن تقتلني رصاصة من سلاح صديقي. الوضع كان مثالياً، لم يكن ثمّت شاهد، الصياد كان بعيداً في طرف الغابة مع الكلاب: كان الوضع تاماً وآمناً "للحادث المأساوي" كما اعتادت الصحافة الكتابة عن مثل ذلك سنة بعد سنة. انقضت نصف دقيقة وتأخرت الطلقة. في تلك اللحظة شعر الأيل بالخطر وتوارى في الغابة بقفزة تشبه انفجاراً. استمرينا نحن دون حراك. بعدئذٍ أنزلت السلاح ببطء شديد. تلك الحركة لا يستطيع المرء سماعها أو رؤيتها. لكن أنا سمعتها ورأيتها وكأنك كنت أمامي. أنزلت سلاحك بحذر شديد وكأن ملامسة الهواء له يمكن أن يشي بنواياك؛ انقضت اللحظة، الأيل كان قد توارى بين أشجار الصنوبر، والأكثر أهمية هو أنك كنت ما زلت قادراً على قتلي، لأنه لم يكن هناك شاهد عيان لكي يروي المشهد، ولم يكن أي رجل، أي قاض قادراً على مقاضاتك؛ كان الجميع سيرافقونك إلى المقبرة لو فعلت ذلك: كنا صديقين أسطوريين مثل كاستور وبولوكس* كنا رفاقاً في السراء والضراء خلال اثنين وعشرين عاماً، كنا تجسيداً لفكرة الصداقة، ولو أنك قتلتني لكان الجميع سيمدون لك أياديهم المتعاطفة معك لإغاثتك،

* أخوان توأمان لقبا بديوسقورس. من أبطال الأساطير اليونانية. ابنا زيوس وليدا وأخوا هيلين وكليتيمنسترا. م.

كانوا سيرافقونك في حدادك، إذ لا يوجد في عيون العالم أي كائن إنساني له قدر أكثر مأساوية من أحد قتل صديقه مصادفة أو عن قصد، أمر جدير بتراجيديا إغريقية. أين سيكون الرجل، القاضي، الجسور الذي سيتجرأ على اتهامك، على الإعلان أمام الملأ ما لا يُصدّق، بأنك قتلتني متعمداً؟ لا يمكن أن يكون هناك دليل يبرهن على أنك نمّيت في قلبك عاطفة قاتلة ضدي. في الليلة السابقة كنا قد تناولنا العشاء معاً كعائلة، مع زوجتي، أقربائي ورفاق الصيد، في المنزل الذي كنت مدعواً يومياً فيه منذ عقود؛ لقد رأونا كما في السابق في كل ظروف الحياة، في الجيش، في المجتمع، ونحن نتبادل المودة والتعاطف مع بعضنا. لم تكن تدين لي بالنقود، كنت وكأنك أحد أفراد العائلة في بيتي، هكذا من كان سيفكر بأنك قتلتني؟ لا أحد. لأي دافع أردت قتلي؟ أي افتراض لا إنساني ومستحيل في أن تكون أنت الصديق الذي أكنّ له أعمق المحبة قد قتلتني أنا الصديق الذي تكنّ له أعمق المحبة والذي كان يمكنك أن تحصل منه على كل شيء تحتاجه في الحياة، أي مساعدة إنسانية أومادية؛ شخص استطاع أن يعتبر بيتي كما لو أنه بيته، ثروتي كما لو أنها ثروة أخيه، وعائلتي كما لو أنها تبنته في كنفها. كلا، كان الاتهام سيقع على المتهِم، لايمكن أن يكون هناك أحد يبدي ذلك، كان ذهول الآخرين سيمحي عن وجه الأرض ذلك البائس الذي تجرأ على تأكيد مثل هذا الأمر، وكان الآخرون سيمدون يد التعاطف معك لأن تلك الكارثة اللاإنسانية الرهيبة ستكون قد أصابتك أنت حقيقة، لأن المصادفة التراجيدية هي أنك قتلت أفضل أصدقائك بيديك. هكذا كان الوضع. وأنت لم تطلق النار. لماذا؟ ما الذي حدث في تلك اللحظة؟ ربما، ببساطة شعر الأيل بالخطر وهرب:

الطبيعة الإنسانية تحتاج دائماً إلى ذريعة مادية في لحظة ارتكاب فعل استثنائي. ما كنت قد خططت له كان شيئاً تاماً، ملموساً ومكتملاً، لكن ربما كنت تحتاج إلى الأيل؛ لقد أُفسِد المشهد وأنت أنزلت البندقية. كانت المسألة لا تتعدى الثواني، هكذا إذن من كان قادراً على الفصل والحكم؟ ليس للأمر أهمية. الحقيقة هي المهمة مع أنها لا تصلح لاتخاذ قرار أثناء المحاكمة. الحقيقة هي أنك أردت قتلي، وبعد ذلك، حين ظاهرة ما غير متوقعة في العالم أفسدت اللحظة، بدأت يداك بالارتجاف ولم تقتلني. الأيل كان قد توارى مباشرة بين الأشجار ونحن لم نبرح مكاننا. لم أنظر إلى الخلف. مكثنا هكذا خلال وهلة أخرى. ربما لو نظرت في وجهك في تلك اللحظة لكنت عرفت كل شيء. لكنني لم أتجرأ على النظر في وجهك. هناك شكل من أشكال الخجل هو الأكثر ألماً يمكن أن يكابده كائن إنساني: خجل الضحية حين يتوجب عليها النظر في وجه قاتلها. في لحظات كهذه يشعر المخلوق بالخجل أمام الخالق. لذلك لم أنظر في وجهك، وحين انتهى السحر الذي قيّد حركتنا وشلنا معاً توجهت إلى قمة الجبل في الدرب الذي يقود إلى هناك. في منتصف الطريق قلت لك ملتفتاً برأسي نصف التفاتة دون النظر إلى الخلف: "لقد أخفقت". لم تجب. ذلك الصمت كان وكأنه اعترافاً. لأن أي شخص في ظروف كهذه كان سيبدأ الكلام محاولاً الشرح بخجل أو بحماس، مداعباً أو مدافعاً عن نفسه؛ أي صياد آخر كان سيحاول النقاش وإقامة الدليل لصالحه، كأن يقوم بازدراء الطريدة، المبالغة بالمسافة، التقليل من إمكانية الإصابة المؤكدة... لكنك صمتّ. وكأنك تقول بصمتك: "نعم لقد أخفقت ولم أقتلك". وصلنا إلى القمة دون التفوه بكلمة. هناك كان ينتظرنا الصياد مع

الكلاب، وكانت تُسمع طلقات البنادق في الوادي: لقد بدأ الصيد. وافترقنا. خلال الطعام، طعام الصيادين وسط الغابة، قال لي مساعدك بأنك عدت إلى المدينة.

تناول الضيف سيجاراً، لم ترتجف يداه، قطع طرف السيجار بحركة بطيئة، انحنى الجنرال صوبه وقدم له شعلة.

- شكراً ـ قال الضيف.

- مع ذلك جئت في تلك الليلة للعشاء ـ قال الجنرال ـ كالسابق، مثل كل الليالي، جئت في الساعة المعهودة، السابعة والنصف، في عربة الخيل. تناولنا العشاء ثلاثتنا؛ مثل الليلة السابقة، مثل ليال أخرى كثيرة، مع كريستينا. كانوا قد وضعوا المائدة في صالة الطعام الأساسية، مثل اليوم، مع الصحون ذاتها، مع الزينة ذاتها؛ وكانت كريستينا تجلس بيننا. في مركز المائدة كانت بعض الشموع الزرقاء مشتعلة. كان يروق لها ضوء الشموع، يروق لها كل ما يذكرها بالماضي، أشكال الحياة الأكثر نبلاً في الأزمنة القديمة. حين عدت من الصيد ذهبت مباشرة إلى غرفتي كي أبدل ثيابي، هكذا لم أر كريستينا في فترة ما بعد الظهر. قال لي الخادم بأنها ذهبت في نزهة بالعربة إلى المدينة. لقد رأينا بعضنا عند العشاء بينما كانوا يعدون المائدة؛ كانت كريستينا تنتظرني جالسة أمام التشيميني وهي تضع منديلاً هندياً فوق كتفيها لأن المساء كان رطباً ممتلئاً بالضباب. التشيميني كان مشتعلاً. كانت تقرأ ولم تسمعني حين دخلت. ربما السجادة امتصت وقع خطاي، ربما كانت مستغرقة جداً بالقراءة في كتابها، كانت تقرأ كتاباً بالإنكليزية، كتاب رحلات إلى المنطقة الاستوائية، وهكذا لم تشعر بحضوري إلا في اللحظة الأخيرة حين كنت أمامها. حينئذٍ رفعت نظرها؛ هل تتذكر نظرتها؟ حين تنظر إليك

وكأن الشمس تشرق بكل بهائها؛ وربما كان ذلك بسبب ضوء الشموع، لكني ارتعبت لرؤية وجهها الشاحب. "هل أنت في حالة سيئة؟". سألتها. لم تجبني. نظرت إليّ لوهلة بعينين مفتوحتين على آخرهما ولم تتفوه بكلمة، وتلك اللحظة كانت على الأقل تشبه تلك اللحظة التي حدثت في الصباح في الطول والتوتر، حين كنت أنتظر بلا حركة أن يحدث شيء، أن تقول شيئاً أو أن تطلق النار عليّ. نظرت في عينيّ بكثير من الدقة والتمعن وكأن ذلك بالنسبة لها الأكثر أهمية من حياتها ذاتها، معرفة ما الذي أفكر به، معرفة ما إذا كنت أفكر بشيء ما، إذا كنت أعرف شيئاً ما. تلك كانت أكثر أهمية لها من حياتها. دائماً هذا هو ما يهم، حتى أكثر من الطريدة أو من النتيجة: معرفة ما الذي تفكر فيه الضحية أو الشخص الذي اخترناه كضحية. نظرت إلى عينيّ وكأنها كانت تستنطقني. أعتقد أنني قاومت نظرتها. كنت هادئاً في تلك اللحظة وكذلك فيما بعد؛ لم يستطع وجهي الوشاية بي أمام كريستينا. عند الصباح وبعد الظهر، خلال رحلة الصيد الاستثنائية تلك، التي كنت أنا نفسي طريدة فيها، قررت التزام الصمت حول ما حدث في تلك اللحظة من الفجر مهما حدث؛ قررت السكوت إلى الأبد أمام الشخصين اللذين يحظيان بثقتي: كريستينا والمربية؛ قررت ألا أروي لهما شيئاً حول ما عرفته في ذلك الفجر في الغابة. قررت أن أضعك سراً تحت مراقبة طبيب، لأن شياطين الجنون كانت قد استولت على روحك، على الأقل هذا مااعتقدته آنذاك. لم أجد أي تفسير ممكن في تلك اللحظة. شخص يشكل جزءاً من حياتي فقد صوابه، رددت ذلك بعناد، بغيظ تقريباً، خلال كل فترة الصباح وفترة ما بعد الظهر، ومع هذه الفكرة استقبلتك مساء حين جئت للعشاء. أردت إنقاذ الكرامة الإنسانية بهذا الافتراض، الكرامة الإنسانية بشكل عام وبشكل

خاص، لأنك لو كنت حصيفاً ولو كان لديك سبب ما، ليس مهماً أي نوع من الأسباب كي ترفع السلاح عليّ، سنكون جميعاً حينها قد فقدنا كرامتنا ككائنات إنسانية. جميع من يعيش في هذا البيت، كريستينا أيضاً وأنا كذلك. هكذا فسرتُ نظرة الهلع والمفاجأة لدى كريستينا حين وقفتُ أمامها بعد رحلة الصيد. وكأنها حدست بجزء من السر الذي ربط بيننا أنت وأنا منذ ذلك الفجر. النساء يدركن مثل هذه الأمور، فكرت. بعدئذٍ وصلت أنت بلباسك الرسمي وجلسنا حول المائدة للعشاء. تحدثنا مثل كل الليالي، وتكلمنا كذلك عن رحلة الصيد، عن دور مثيري الطيور من مكامنها، عن الخطأ الذي ارتكبه أحد ضيوفنا حين قتل أيلاً فتياً جداً، شيء لم يكن خطأ فحسب، إنما ممنوع كذلك. لكنك لم تذكر تلك اللحظة طوال السهرة. لم تقل شيئاً عن دورك في رحلة الصيد، عن ذلك الأيل الغريب الذي هرب منك. حول هذه الأشياء يتكلم المرء دائماً حتى ولو كان صياداً غير متحمس. لم تقل شيئاً عن الطريدة التي فوتّ فرصة اقتناصها، ولا عن السبب الذي جعلك تتخلى عن الصيد قبل الوقت ولا لماذا عدت إلى المدينة دون التفوّه بكلمة، ولا لماذا لم تظهر حتى المساء. كل ذلك كان غير عادي بالتأكيد، مخالف للعادات والأعراف الاجتماعية. كان يمكنك أن تقول شيئاً حول ذلك الصباح، لكنك لم تقل شيئاً وكأننا لم نكن نصطاد معاً. تكلمت عن أشياء أخرى. سألت كريستينا عمّا كانت تقرأه عند وصولك ودخولك الصالون. كريستينا كانت تقرأ شيئاً حول المنطقة الاستوائية. تكلمتما مطولاً حول الكتاب الذي كانت تقرأه، سألتها عن عنوان الكتاب، سألتها عن الأثر الذي يتركه عندها قراءة ذلك الكتاب، أردت أن تعرف عن كيفية الحياة في المنطقة الاستوائية، تصرّفت وكأن ذلك الموضوع يهمّك كثيراً لأنك لا تعرف عنه شيئاً،

وعلمت فيما بعد، من ورّاق المدينة، بأنك أنت من طلب ذلك الكتاب وكتباً أخرى مشابهة حول الموضوع ذاته، وأنت نفسك من أعاره إلى كريستينا قبل ذلك بعدة أيام. لم أكن أعلم في ذلك المساء. لقد أقصيتماني عن المحادثة، إذ أنني لا أعلم شيئاً على الإطلاق حول المنطقة الاستوائية. فيما بعد، حين علمت بأنكما خنتماني في ذلك المساء، تذكرت المشهد، عدت لسماع الكلمات التي قلتماها وأدركت بإعجاب شديد براعة التمثيل لديكما. أنا لم أكن أعلم، لم أستطع الارتياب بأي من كلامكما: لقد تكلمتما عن المنطقة الاستوائية، عن كتاب، عن قراءات أخرى أكثر عمومية. كنت مهتماً برأي كريستينا وقبل كل شيء أردت أن تعرف إذا كانت تعتقد بأن شخصاً ولد في مناخ آخر يستطيع تحمّل شروط الحياة في المنطقة الاستوائية. ماذا تفكر كريستينا حول ذلك؟ أنا لم تسألني. وهي؟ هل تستطيع تحمّل المطر، البخار الحار، الضباب الحارق الذي يبعث على الاختناق، الوحشة وسط المستنقعات والغابات؟ أترى؟ الكلمات تتكرر دائماً. حين كنت هنا آخر مرة، في هذا المكان ذاته، منذ واحد وأربعين عاماً خلت، تكلمت أيضاً عن الأمر ذاته: المنطقة الاستوائية، الأمطار والضباب الحارق. نعم، الكلمات تعود. كل شيء يعود، الأشياء والكلمات تتقدم في دائرة ثم تعود وتلتقي، تتلامس وتغلق شيئاً ـ قال ببرود ولا مبالاة ـ حول هذا تكلمت مع كريستينا في تلك الليلة الأخيرة. حوالى منتصف الليل طلبت عربتك كي تعود إلى المدينة. هذا ما حدث في يوم رحلة الصيد ـ قال وفي صوته وقع الرضا عن النفس عند كبار السن الذين يروون شيئاً بدقة، الذين يعرفون جمع أفكارهم بطريقة واضحة ومقتضبة.

15

حين ذهبتَ، انسحبت كريستينا أيضاً ـ تابع ـ وأنا بقيت لوحدي في الصالون. لقد نسيت الكتاب، الكتاب الإنكليزي حول المنطقة الاستوائية: تركته على مقعدها. لم يكن لدي رغبة بالنوم بعد، لذا فتحت الكتاب وتصفحته. نظرت إلى الرسوم التوضيحية والجداول الإحصائية حول قضايا اقتصادية، صحية وطبية. فاجأني أن تقرأ كريستينا كتاباً كهذا. لا علاقة لها بمثل هذه الأمور، فكرت، لا يمكن أن تثير اهتمامها أرقام حول إنتاج المطاط أو الحالة الصحية للسكان الأصليين. ليس لكريستينا علاقة بكل ذلك، قلت لنفسي. مع ذلك أفصح لي الكتاب عن أشياء وليس فقط بالإنكليزية، وليس فقط حول ظروف الحياة في المنطقة الاستوائية. بينما كنت وحيداً في الصالون والكتاب في يدي، بعد منتصف الليل، بعد أن تركني الشخصان اللذان يهمانني أكثر من أي شيء آخر بعد والدي، أدركت فجأة أن الكتاب كان بمثابة إشارة أيضاً. أدركت كذلك تفصيلاً آخر، مع أنه تفصيل مربك نوعاً ما: الأشياء بدأت تحدثني ذلك اليوم، حدث شيء، الحياة توجهت صوبي. هكذا قلت لنفسي أنه من الملائم أن أعير انتباهاً، إذ أن اللغة الرمزية وشديدة الخصوصية للحياة تكلمنا بألف طريقة مختلفة في أيام كهذه، وكل ما يحدث هو لأجل لفت انتباهنا، كل إشارة وكل صورة، الشيء الوحيد المتبقي هو إدراكها. الأشياء تنضج وتجيب فجأة. هذا ما فكرت به. وأدركت بالإضافة إلى ذلك، على الفور، أنه حتى الكتاب كان إشارة وجواباً. أوحى الكتاب: أن كريستينا ليست

سعيدة هنا، إنها ترغب بالرحيل. تفكر في عوالم قصية أو أنها ترغب في معرفة عوالم أخرى، غير هذا العالم. ربما ترغب بالهرب من هنا، تهرب من شيء أو من أحد، ويمكن أن يكون هذا الأحد هو أنا، ويمكن أن يكون أنت. هذا واضح وضوح النهار، قلت لنفسي. كريستينا تشعر بشيء، تعرف شيئاً، تريد الرحيل من هنا، لذا تقرأ كتاباً حول المنطقة الاستوائية. في تلك اللحظة فكرت وأدركت أو اعتقدت بأنني أدركت أشياء كثيرة. أدركت وفكرت بالذي حدث في ذلك اليوم؛ أن حياتي انشطرت إلى شطرين، كمشهد طبيعي شطره زلزال: من جهة بقيت الطفولة، مرحلة الشباب، أنت مع كل ما تعنيه الحياة الماضية، وفي الجهة الأخرى يبدأ حيّز غير محدد ولا يمكن الإحاطة به هذا الذي يجب عليّ المضي فيه بقية حياتي. وأن شطري حياتي لم يعودا متحدين. ما الذي حدث؟ لا أعرف الإجابة. سعيت طوال اليوم لتهدئة نفسي والحفاظ على توازني وإن كان ذلك بطريقة مصطنعة، وحققت ذلك: كريستينا لم تستطع معرفة شيء حين نظرت إليّ شاحبة بعينيها تلك شديدتي الخصوصية والمتسائلتين. لم تستطع أن تعلم، لم تستطع القراءة في وجهي عمّا حدث خلال رحلة الصيد. وما الذي حدث؟ ألست أتصور أشياء؟ أليس ذلك كله من ثمرة خيالي؟ لو رويت ما حدث لأحد ما سيضحك مني بالتأكيد. ليس لدي أي مُعطى ولا أدنى دليل في اليد... لماذا إذن هذا الصوت، صوت أقوى من أي دليل، يصرخ في داخلي بشكل لا لبس فيه، مبرم، لا يقبل الشك بأنني لست على خطأ، بأنني أعرف الحقيقة؟ والحقيقة هي أن صديقي حاول قتلي عند الفجر. أي اتهام أكثر سخافة، أكثر زيفاً وخواء، أليس كذلك؟ هل سأروي لأحد ما في يوم ما عن مثل هذه القناعة الأكثر وضوحاً من أي فعل آخر؟

كلا، أبداً. سألت نفسي أيضاً أي معايشة تنتظرني إذا ما عرفت كل شيء بشكل مؤكد وهادئ، مثلما يعرف المرء بالأفعال الأكثر عادية في الحياة. هل سأستطيع النظر في عينيك أم أن كل شيء سيكون بمثابة كوميديا بين الثلاثة، بينك أنت، أنا وكريستينا وقد تحولت الصداقة إلى مسرحية وتجسس؟ هل نستطيع العيش هكذا؟ أترى: كان لدي أمل بأنك أصبحت مجنوناً. ربما بسبب الموسيقى، قلت لنفسي. كنتَ دائماً شديد الخصوصية، مختلفاً، متبايناً عنا. لايمكن للمرء أن يكون موسيقياً ومن أقارب شوبان دون تبعات. علمت أيضاً بأن آمالي كانت حمقاء وجبانة: كان عليّ أن أواجه الواقع، لا أستطيع الكذب على نفسي لأنك أنت لم تكن مجنوناً. ليس هناك عذر، ما من مهرب. لديك دوافعك لكي تكنّ لي الضغينة، لكي تقتلني. مع أنني لا أفهمها. التفسير الطبيعي والبسيط هو أن تكون تملك رغبة مفاجئة، عاطفة مشبوبة، شعوراً لا يُقاوم تجاه كريستينا. لكن هذا الافتراض بدا لي غير واقعي على الإطلاق، يفتقر إلى أساس، لم يكن لديك أي شعور مسبق يشير إلى ذلك في الحياة اليومية لنا نحن الثلاثة، لذا رفضت هذا الافتراض لعبثيته. كنت أعرف كريستينا جيداً وعرفتك جيداً، وأعرف نفسي جيداً أو على الأقل هذا ما اعتقدته في تلك اللحظات. حياتنا نحن الثلاثة، مرحلة الخطوبة ثم الزواج من كريستينا، صداقتنا، كل ذلك بدا لي ككتاب مفتوح، عالم نظيف، شفاف مع ظروف وطبائع لا لبس فيها؛ سأكون مجنوناً إذا ما صدقت أمراً كهذا، فكرت. العواطف المشبوبة مهما كانت خرقاء فإنها لا تستطيع الاختباء، عاطفة تجبر أحداً ما على رفع السلاح ضد أفضل صديق له لا تستطيع الاختباء عن العالم خلال شهور وشهور، وأنا، الطرف الثالث،

أعمى وأصم، لكنت استشفيت شيئاً من الأمر: لقد عشنا سوية تقريباً، تتناول العشاء في المنزل ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، أنت وأنا نقضي الأيام سوية، نرى بعضنا في المدينة، في النُكنة، في الخدمة وكنا نعلم كل شيء الواحد عن الآخر. كنت أعرف الأيام والليالي لكريستينا عرفت جسدها وروحها مثلما أعرف جسدي وروحي. كان من الجنون الافتراض بأنك أنت وكريستينا. .. في الوقت ذاته فإن مقاومة هذا الافتراض كان يعني بالنسبة لي الراحة تقريباً. يجب أن يتعلق الأمر بشيء آخر. ما حدث كان شيئاً أكثر عمقاً، أكثر سرية، أكثر غموضاً. عليّ التحدث معه، قلت لنفسي. ربما عليّ أن آمر بترصدك مثل الزوج الغيور في مسرحيات الكوميديا المبتذلة. كلا، أنا لم أكن زوجاً غيوراً. لن أسمح للريبة بأن تعشش في أفكاري، كنت هادئاً حين أفكر بكريستينا التي كنت قد وجدتها مثلما يجد جامع التحف قطعة من القطع الأكثر غرابة والأكثر قيمة في العالم، الأكثر اكتمالاً بين مجموعته، عمل فني حقيقي إيجاده واكتشافه كان الهدف الوحيد، مغزى حياته. كريستينا لاتكذب عليّ، قلت لنفسي، ليست غير وفية لي، أعرف جميع أفكارها، حتى الأكثر سرية، حتى تلك التي تحدث في أحلامها. دفتر اليوميات المغلف بالمخمل الأصفر الذي أهديتها إياه بعد زواجنا بقليل يقول كل شيء: اتفقنا أن تكتب لي ولنفسها جميع أفكارها، كل مشاعرها، كل رغباتها، تلك التي تطرحها الروح الإنسانية والتي لا يتكلم حولها أحد بصوت مرتفع بسبب الخجل أو لأنه يعتقد بأنها تفاصيل تفتقر للأهمية؛ كل ذلك ترك أثراً في دفتر اليوميات شديد الخصوصية ذاك، كانت تترك لي رسائل بكلمات قليلة لكي أستطيع معرفة ما توصلت للتفكير به أو الإحساس به في ظروف معينة

أثناء حضور أشخاص معيّنين. علاقتنا كان لها هذا الطابع من الثقة التامة. دفتر اليوميات السري كان دائماً هناك، في درج مكتبها الذي هي وأنا فقط لدينا مفتاح له. دفتر اليوميات ذاك كان أقصى ما يمكن أن يوجد بين الزوجين من الثقة المتبادلة. إذا كان في حياة كريستينا سر ما فإن دفتر اليوميات سيكشف لي عنه. لكن طبعاً، قلت لنفسي، نحن مؤخراً أهملنا هذه اللعبة السرية، هكذا نهضت، اجتزت البيت في العتمة ووصلت إلى غرفة عمل كريستينا، دخلت، اقتربت من المكتب، فتحت الدرج وبحثت عن دفتر اليوميات المغلف بالمخمل الأصفر. لكن الدرج كان فارغاً.

أغمض عينيه، مكث هكذا لوهلة كضرير، مع وجه خال من التعابير وكأنه يبحث عن كلمة.

- كان الوقت بعد منتصف الليل، والجميع نيام. كانت كريستينا تعبة ولم أشأ إزعاجها. يجب أن تكون قد أخذت دفتر اليوميات إلى غرفة نومها، فكرت - تابع بصوت لطيف - لم أشأ إزعاجها، سأسألها في الغد إذا ما كان لديها رسالة لي في دفتر اليوميات، في ذلك البريد السري الخاص بنا. عليك أن تعلم أن ذلك الدفتر مفعم بالثقة (الذي لم نتكلم عنه قط، إذ أننا كنا نشعر بقليل من الخجل أمام كل هذه الثقة المتبادلة) كان ذلك بمثابة بوح حب دائم بيننا. من الصعب الكلام حول ذلك. الفكرة كانت لكريستينا، هي طلبت مني أن أهديها دفتر يوميات في باريس خلال شهر العسل وهي من كانت تريد الاعتراف بشكل دائم؛ فيما بعد، بعد ذلك بكثير، حين لم تعد كريستينا على قيد الحياة، أدركت أن من يحضر نفسه بمثل هذه الدقة لأجل اعترافات كهذه، لأجل بعض الأفعال ذات الثقة المطلقة، فعلى الأرجح يعلم أنه في

يوم ما سيكون هناك شيء في حياته عليه أن يعترف به. لقد تأخرت في إدراك أهمية دفتر اليوميات ذاك، فكرت بأن الأمر يتعلق بمبالغة هي من خصوصية النساء، على شكل إرسال رسائل سرية، كتابات، رسائل ذات نزوات مرمّزة عن حياة كريستينا. قلت لنفسي بأنها لا تريد أن يكون لديها أسرار، لا معي ولا مع نفسها، وأنها تدوّن كل ما يكلفها جهداً في التعبير عنه بصوت مرتفع. لقد قلت لك بأنني أدركت فيما بعد أن من يبحث عن ملاذ في الصدق فإنه يخشى شيئاً، يخشى من يوم تكون حياته فيها طافحة بأشياء لا يستطيع الإفصاح عنها، من أسرار حقيقية لا يمكن الاعتراف بها. أرادت كريستينا أن تمنحني كل شيء، جسدها وروحها، مشاعرها وأفكارها الأكثر سرية، كل رسائل نظامها العصبي... كنا في أوج شهر العسل، كانت كريستينا عاشقة؛ أنت تعلم ما هي أصولها، مايعنيه بالنسبة لها كل ما أعطيتها إياه: كنيتي، هذا البيت، القصر الصغير في باريس، الحياة الاجتماعية. .. أخيراً أشياء لم تتجرأ حتى على الحلم بها في تلك المدينة الصغيرة، في البيت المتواضع حيث عاشت وحيدة مع والدها العجوز الصامت والمريض الذي يعيش على الذكريات فحسب، مع آلته الموسيقية ونوتاته. .. فجأة تمنحها الحياة كل شيء، تضع لها كل شيء على طبق، الزواج، رحلة الخطوبة لعام كامل، باريس، لندن، روما، الشرق، شهور كاملة في واحة، البحر. اعتقدت كريستينا بالطبع بأنها عاشقة. أدركت فيما بعد أنه لم يكن حباً، حتى لم يكن كذلك منذ البداية، لم يكن سوى امتنان.

يعقد يديه، يستند بكوعيه على الركبتين دون الانحناء إلى الأمام ويتابع:

- شعرت بالامتنان، امتنان لا نهائي، على طريقتها، على طريقة المتزوجة حديثاً والتي ذهبت في شهر عسل مع زوجها، الشاب الثري والأنيق - يضغط يديه المعقودتين، ينظر إلى رسومات السجادة، باستسلام وانتباه - أرادت أن تعبر عن امتنانها لي مهما كلف الأمر، لذا اخترعت ما يتعلق بدفتر اليوميات، هدية شديدة الخصوصية. لأن دفتر اليوميات كان طافحاً دائماً بأشياء تدهشني منذ اليوم الأول. لم تكن كريستينا تؤلهني على الإطلاق في دفتر يومياتها، واعترافاتها. كانت أحياناً صادقة مما يبعث عندي على القلق. كانت تصفني كما تراني بكلمات قليلة، لكنها مصيبة جداً. كانت تصف ما لا يعجبها فيّ، طريقتي في الاقتراب من الناس، من أي إنسان في العالم، ثقتي المفرطة: لم تجد في تواضعي القيمة القصوى لروحها المسيحية. كان صحيحاً، خلال تلك السنوات لم يكن لدي مثقال ذرة من التواضع. كان العالم ملكي: لقد تعرفت على زوجتي للتو فلاقت كلماتها صدى تاماً عندي وكذلك رسائل جسدها وروحها؛ كنت ثرياً وذا مرتبة اجتماعية عالية، الحياة ظهرت لي بكل بهائها، كنت في الثلاثين من عمري، أحببت الحياة، الخدمة، مهنتي. إذ أنظر الآن إلى الوراء أشعر أنا نفسي بالقرف من الثقة ومن السعادة الطافحة بالرضا عن النفس والأنانية. مثل جميع الأشخاص الذين يعيشون مدللين من الآلهة دون أي دافع، كذلك شعرت بنوع من الغم في عمق كل هذه السعادة. كل شيء كان بديعاً، شديد الوضوح، شديد الكمال. يخشى المرء دائماً كل هذه السعادة المنظمة. كنت سأرغب حينئذٍ في أوج شهر العسل بأن أقدم أضحية ماللحياة: لم يكن يهمني إذا ما جاءتني في رسائل المنزل التي كنت أستلمها في موانئ مختلفة، أخبار سيئة، مادية أو معنوية، لم يكن يهمني معرفة أن هذا المنزل قد

احترق، بأنني خسرت أموالاً، لم يكن يهمني إذا ما أرسل لي المصرف الذي أتعامل معه أو المدير المسؤول عن ثروتي أخباراً سيئة أو شيئاً من هذا القبيل... أنت تعلم أن المرء يرغب دائماً بإعادة شيء إلى الآلهة، جزء من سعادته. لأن الآلهة، كما هو معروف، حسودة، وحين تقدم سنة من السعادة لأحد الفانين العاديين تسجلها كدين وتطالبه بها في نهاية حياته مع فائدة المرابي. كل شيء من حولي كان يجري دون أي خطأ، كل شيء كان مكتملاً. كانت كريستينا تكتب في دفتر يومياتها رسائل بكلمات قليلة وكأنها تتوجه إليّ في الأحلام، تكتب جملة واحدة في بعض الأحيان، وأحياناً أخرى كلمة واحدة. أشياء مثل: "لا حلّ يُرجى منك لأنك مزهواً بنفسك". بعد ذلك تمضي أسابيع دون أن تكتب شيئاً. أو كتبت بأنها رأت رجلاً في الجزائر وتبعها في زقاق ضيّق وأنه تكلم معها وكان لديها إحساس بأنها ذهبت معه. كانت كريستينا امرأة فضولية وحيوية، فكرت. لكن كنت أشعر بالسعادة وومضات الصدق شديدة الخصوصية تلك الومضات المقلقة قليلاً لم تفسد عليّ سعادتي. لم يتبادر إلى ذهني قطعاً بأن من يعزم على قول كل شيء إلى الآخر فعلى الأرجح هو يتكلم بصدق غير مشروط لكي لا يكون عليه أن يقول أي شيء على الإطلاق حول تلك الأشياء التي تهمه حقيقة. لم يتبادر إلى ذهني قط التفكير بذلك، لا خلال شهر العسل ولا فيما بعد عند قراءة الرسائل في دفتر اليوميات ذاك. لكن جاء ذلك اليوم وتلك الليلة، يوم رحلة الصيد، وقضيت اليوم كله والإحساس ينتابني بأن سلاحك أطلق النار وأن رصاصة غير متوقعة مرّ أزيزها قرب رأسي. هناك كنت أنا في عدد لا يحصى من الليالي؛ كنت أنت قد ذهبت بعد أن راجعت بدقة كل التفاصيل الصغيرة حول المنطقة الاستوائية؛ وأنا بقيت وحيداً

مع ذكريات ذلك اليوم وتلك الليلة. ولم أجد دفتر اليوميات في مكانه المعهود، في درج مكتب كريستينا. في الصباح التالي قررت الذهاب إلى المدينة كي أراك ولكي أسألك حول بعض الأشياء وحول...

يصمت. هزّ رأسه بطريقة تنم عن السلبية، مثل عجوز يُفاجأ بالقيام بشيء يفعله طفل.

- أسألك؟ ماذا؟ـ قال بصوت خفيض، باحتقار وكأنه يسخر من نفسه ـ ما الذي يمكن سؤاله بالكلمات؟ أي قيمة للأجوبة التي تُعطى بالكلمات وليس بصدق الحياة الإنسانية؟ ضئيلة جداً ـ قال بقناعة تامة ـ قلة هم الأشخاص الذين تتوافق كلماتهم مع حياتهم، مع أفعالهم. حين يحدث ذلك تتمخض أحد أكثر المعجزات غرابة في الحياة. أنا، في تلك الحقبة، لم أكن أعرف هذا بعد. لاأقصد هنا الكذابين. أريد القول أن الناس ما أن تتعلم الحقيقة حتى تكتسب تجربة، لكن كل ذلك لا يجدي نفعاً، لا أحد يستطيع تبديل طبيعته. ربما لا يستطيع المرء فعل شيء آخر في الحياة سوى التكيّف مع الواقع، بذكاء واحتراز، هذا الواقع الآخر الذي لا رجعة منه، الطبيعة البشرية. هذا هو الشيء الوحيد الذي نستطيع فعله. ومع ذلك سوف لن نكون بهذا أكثر حكمة، ولن نكون أكثر احتراساً أمام المصائب. قررت إذن الذهاب إليك لأتكلم معك دون إدراكي أنني مهما سألتك ما عليّ سؤاله ومهما أجبت ما ستجيب به فإن الأفعال لا تتبدل. مع ذلك يمكن معرفة الأفعال عبر الكلمات، الاقتراب من الواقع بوساطة أسئلة وأجوبة، ولهذا قررت التكلم معك. نمت بعمق؛ كنت مرهقاً جداً، وكأنني اجتزت تجربة جسدية قاسية بشكل خاص، كأنني ركبت الخيل أو مشيت خلال ساعات. في إحدى المرات حملت على ظهري دباً من قمة جبل مغطى

بالثلج، كان يزن على الأقل مئتين وخمسين كيلو غراماً: أعلم أن قوتي كانت استثنائية في تلك السنين، لكن حتى الآن ما زلت لا أفهم كيف استطعت حمل كل ذلك الثقل ماشياً في دروب ضيّقة ومنحدرة تحيط بها الوديان العميقة. وكأن الإنسان قادر على كل شيء إذا ما كان لحياته معنى. تلك المرة، بعد أن أنزلت الدب، تهالكت منهكاً بين ثلوج الوادي ونمت هناك: وجدني الصيادون الذين يعملون عندي، نصف مجمّد إلى جانب الدب الميت. ولقد نمت في تلك الليلة بالطريقة ذاتها، بعمق ودون أحلام؛ حين استيقظت أمرت بتهيئة العربة ثم ذهبت إلى المدينة، إلى بيتك. هناك علمت بأنك رحلت. استلمنا الرسالة التي أرسلتها إلى الكتيبة في اليوم التالي، رسالة أبلغتنا فيها بأنك تضع منصبك تحت تصرف قادتك وأنت ستسافر إلى الخارج. في البداية فهمت ذلك على أنه هروب فحسب، وهكذا تأكد لي بأنك أردت قتلي، أن شيئاً ما قد حدث، أن شيء ما كان يحدث لم أفهمه في تلك اللحظة؛ لكني كنت متأكداً أن ذلك الشيء له علاقة بي، حميمياً وقدرياً، وأن كل ما حدث لم يحدث لك فقط، إنما حدث لي أيضاً. هناك كنت، في بيتك، في تلك الغرفة الطافحة بالأشياء السرية، التي تبعث على الثمل، الشديدة الغرابة، وفجأة انفتح الباب ودخلت كريستينا.

كان يتكلم كحكواتي لطيف وودود؛ كأنه يروي التفاصيل الأكثر أهمية لحكاية قديمة طافحة بالنوادر لكي يسلي الصديق القادم من بلد أجنبي، من مكان وزمان قصيين.

يستمع كونراد دون حركة ترك السيجار المطفأ على حافة المرمدة الكريستالية، صالب يديه ومكث هكذا دون حركة، في وضعية صارمة ومستقيمة كعسكري لديه محادثة ودية مع أحد قادته.

- دخلت وتوقفت بالباب - قال الجنرال - كانت قادمة من البيت دون قبعة وهي تقود العربة بنفسها. "هل ذهب؟"، سألت. بدا صوتها غريباً وكأنه أجش. أجبت بإيماءة بأن نعم، لقد رحل. لبثت كريستينا هناك ساكنة دون حراك على الباب، وأعتقد أنني لم أرها قط بمثل هذا الجمال في تلك اللحظة. كان وجهها شاحباً جداً مثل الجرحى الذين فقدوا دماً كثيراً، عيناها فحسب كانتا مشرقتين، مثل الليلة السابقة حين دخلت وكانت تقرأ ذلك الكتاب حول المنطقة الاستوائية. "لقد هرب"، قالت بعدئذٍ كما لنفسها دون انتظار أي جواب كما لو أنها تؤكد ذلك وتثبته. "كان جباناً". أضافت دون مبالاة.

- هذا ما قالته؟ سأل الضيف متحركاً، عدّل من وضعيته الشبيهة بتمثال وتنحنح.

- نعم - قال الجنرال - لم تقل شيئاً آخر. وأنا كذلك لم أسألها. مكثنا هناك واقفين دون التفوه بكلمة. بعدئذٍ نظرت كريستينا حولها، نظرت إلى الأثاث قطعة قطعة، إلى اللوحات، إلى الأعمال الفنية. لقد كنت أراقب نظراتها تلك. كانت تنظر إلى الأشياء وكأنها تودعها. نظرت إليها نظرة من يعرف هذه الأشياء ويودعها. كما تعلم، يمكن للمرء النظر إلى غرفة طافحة بالأشياء بطريقتين: حينما تراها المرة الأولى وتريد معرفتها وحينما تودعها. نظرة كريستينا ليس فيها أي فضول المرة الأولى. نظرتها جالت في الغرفة بهدوء ومعرفة كما لو أنها تتأمل بيتها ذاته، حيث تعرف مكان كل شيء. كان في عينيها بريق مكدر وكأنها مريضة وفي الوقت ذاته كانتا ضبابيتين بشكل غريب. تباهت بسلطة غريبة ولم تقل شيئاً، لكن إحساساً ما انتابني بأنها تخطت حدود نفسها، الحدود الآمنة في حياتها، وكانت قريبة من

فقدان نفسها، تفقدك وتفقدني. كان سيكفي أدنى نظرة، حركة غير متوقعة لكي تقول أو تفعل شيئاً لا يمكن معالجته. نظرت إلى اللوحات الفنية بهدوء، دون أدنى اهتمام مثلما تنظر إلى شيء رأته مرات عديدة، شيء تعرفه، ونظرت إليها لتودعها. نظرت إلى الصوفا التي تتحول إلى سرير بتعبير من لديه قصر نظر رامشة جفنيها بشموخ، وخلال ثانية واحدة فتحت عينيها نصف فتحة، بعد ذلك قامت بنصف استدارة وذهبت مثلما جاءت دون التفوه بكلمة. لم أتبعها. رأيت من النافذة المفتوحة كيف اجتازت الحديقة. عبرت إلى جانب الورود المتفتحة. صعدت إلى العربة الواقفة إلى جانب الحاجز الشبكي، تناولت حبل القيادة ومضت. توارت العربة في لحظة في عمق الشارع.

صمت ونظر إلى ضيفه.

- ألم أرهقك؟ - سأل بلطف.

- كلا - أجاب كونراد متنحنحاً. على الإطلاق، تابع حديثك.

- ربما أروي لك بكثير من التفاصيل - قال كمن يعتذر - لكن لا يمكن فعل ذلك بطريقة أخرى: عبر التفاصيل فقط نستطيع فهم الجوهر، هذا ما تعلمته من تجربتي في الكتب وفي الحياة. من الضروري معرفة كل التفاصيل، لأننا لا نعلم أبداً أياً منها سيكون مهماً، ولا متى أية كلمة يمكن أن توضح فعلاً ما. يجب المحافظة على النظام في كل شيء. مع أنني الآن لا أملك أشياء كثيرة أتحدث عنها. أنت هربت، كريستينا ذهبت إلى البيت بالعربة. وأنا... ما الذي أستطيع فعله في تلك اللحظة وفي أي لحظة مستقبلية؟ نظرت إلى الغرفة، نظرت إلى المكان الذي غادرته كريستينا للتو. كنت أعلم أن في الجهة الأخرى من المدخل يقف وصيفك باستعداد. ناديته باسمه، دخل مباشرة وحيّا على الطريقة

العسكرية. "بأمرك"، قال. "متى رحل الكابتن؟". "في قطار الصباح السريع المتوجه إلى العاصمة". "هل أخذ معه الكثير من المتاع؟". "بعض البزات المدنية فقط". "هل أمر بشيء أو ترك رسالة ما؟". "نعم. يجب تصفية البيت وبيع الأثاث. لقد أوكل ذلك إلى محاميه. أنا عليّ العودة إلى الثكنة"، قال. هذا كل ما قاله. نظرنا إلى بعضنا. وعندئذٍ حدث شيء من الصعب نسيانه: الوصيف، فتى في العشرين من عمره، قادم من الريف (من المؤكد أنك تتذكر وجهه الذي ينم عن حسن الطوية والذكاء والإنساني)، تخلى عن وضعية الاستعداد، وضعية الخدمة، لم يعد ينظر في عيني مباشرة، لم يعد الجندي الذي يقف أمام قائده، إنما رجل فحسب يعرف شيئاً أمام رجل آخر يثير لديه الشفقة. كان ثمت شيء في نظرته، شيء إنساني، مع تعبير خفيف ينم عن الشفقة مما جعلني أشحب ثم علا وجهي الاحمرار تماماً. في تلك اللحظة، للمرة الأولى والأخيرة في كل تلك الحكاية، فقدت صوابي أنا أيضاً. اقتربت منه، أمسكت ببزته العسكرية على مستوى الصدر بخشونة شديدة، حتى أنني كدت أرفعه عن الأرض. كنا قريبين من بعضنا حتى أن أنفاسنا لم تعد تتميز عن بعضها. حدّق كل منا في عينيّ الآخر، نظرته كانت تعكس الخوف والشفقة مرة أخرى. وتعلم أنه في تلك الحقبة لم يكن من المستحسن على الإطلاق بأن أضع يدي فوق أحد أو أي شيء، أنت تعلم بأنني كنت أكسر كل شيء لا ألمسه بكثير من الحذر... كما أعلم أنا أيضاً، حدست في تلك اللحظة بأننا نحن الاثنين في خطر، الفتى وأنا. وهكذا أفلته وتركته يقع على الأرض كما لو أنه جندي صغير من الرصاص الذي يلعب به الأطفال؛ صدر عن جزمته ضجة جافة عند الاصطدام بالأرض الخشبية، ووقف باستعداد مرة أخرى كما لو

أنه في استعراض عسكري. أخرجت المنديل من الجيب لكي أجفف به جبهتي. كان سيكفيني من الفتى بأن يجيب على سؤال واحد. السؤال هو: "هل السيدة التي ذهبت للتو جاءت إلى هنا في مناسبات أخرى؟". كنت أفكر بقتله إذا لم يجب. ربما كنت سأقتله أيضاً حتى لو أجاب، وعلى الأرجح سوف لن يكون الوحيد... في لحظات كهذه الصداقة غير موجودة. كنت أعلم كذلك بأن لا فائدة من أن أسأل. أعلم أن كريستينا كانت هناك من قبل، وليس مرة واحدة، إنما مرات عديدة.

أسند ظهره على الأريكة وترك يداه تسقطان على ذراعيها لكي يرتاح.

- لم يكن ثمّت معنى في تلك اللحظة من السؤال عن أي شيء - أضاف لكي ينهي الحكاية - لم يستطع ذلك الفتى، ذلك الغريب أن يقول لي ماكان ينقصني معرفته. ما كان ينقصني معرفته هو لماذا حدث كل ذلك. وأين هي الحدود بين كائنين إنسانيين. أين هي حدود الخيانة. هذا ما كان ينقصني معرفته. وأيضاً أي ذنب لدي أنا في كل ذلك...

قال ذلك بصوت خفيض جداً، استفهامي ومتردد. ثمّن في نبرة صوته أنه للمرة الأولى يلفظ بصوت مسموع السؤال الذي كان ينبض في روحه منذ واحد وأربعين عاماً والذي لم يجد حتى جواباً له.

16

لا تحدث الأشياء في حياة الإنسان فقط - قال الآن بتصميم أكثر، رافعاً رأسه. الشموع مشتعلة بلهب مرتفع وارتفع كذلك الدخان وقد أصبحت فتائلها سوداء. ومازالت العتمة تلف المشهد والمدينة في الجهة الأخرى من النافذة؛ لا يظهر أي ضوء ولا أدنى وميض في الليل - إن المرء يبني ما يحدث أيضاً. يبنيه، يستحضره لايدع ما يجب أن يحدث الهرب منه. هكذا هو الإنسان. صنيع كهذا يعرف ويشعر منذ البداية، من اللحظة الأولى أن ما يقوم به هو شيء محتوم، كما لو أنه متحد مع قدره، وكأنهما يناديان بعضهما ويخلقان بعضهما بشكل متبادل. ليس صحيحاً بأن القدرية تأتي عمياء إلى حياتنا، كلا. القدرية تدخل من الباب الذي فتحناه نحن بأنفسنا طالبين منها الدخول. لا يوجد أي كائن إنساني لديه ما يكفي من القوة والذكاء ليتجنب بوساطة الكلمات أو الأفعال القدر المصيري الذي تزوده به القوانين التي لامناص منها لطبيعته ذاتها ولسجاياه. هل حقاً لم أكن أعرف شيئاً عنك أنت وكريستينا؟ أريد القول، حين كانت تحدث الأشياء، وحتى قبل ذلك، في بداية قصتنا نحن الثلاثة... أولاً وأخيراً أنت من عرّفني بها. كانت تعرفك منذ الطفولة، إذ أنك كنت تكلّف والدها بتبييض نوتاتك الموسيقية؛ يدا ذلك العجوز نصف المشلولتين كانتا ما زالتا صالحتين لنسخ نوتات موسيقية، لكن ليس لاستخدام الفيولين والقوس ولا لعزف الموسيقى وتقليب النوتات الموسيقية بنظافة ونبل؛ هكذا سرعان ما كان عليه أن يتخلى عن مهنته وترك صالات الكونسرت والتعاقد لتعليم أطفال لا أذن

موسيقية لديهم أو أن مواهبهم مزيّفة في المعهد الموسيقي لتلك المدينة الصغيرة، والتتمات المتواضعة التي يزودونه بها لتدقيق ونسخ مقطوعات موسيقية لهواة يملكون شيئاً من الموهبة... هكذا تعرفت على والد كريستينا وعلى كريستينا التي كان عمرها ستة عشر عاماً آنذاك. الوالدة كانت قد توفيت في جنوب التيرول، موطنها، حيث التجأت إليه في السنوات الأخيرة لتضع نفسها في مصح للأمراض القلبية. فيما بعد، في نهاية شهر العسل، ذهبت مع كريستينا إلى ذلك المنتجع، بحثا عن المصح لأن كريستينا أرادت رؤية الغرفة التي توفيت فيها والدتها. عبرنا إلى جانب ضفاف بحيرة "غاردا" التي ينبعث منها شذى الأزهار والبرتقال، نزلنا في فندق "ريفا" ووصلنا إلى "اركو" Arco بعد الظهر بالسيارة. المشهد هناك رمادي وفضي بلون الزيتون، وفي الأعلى يمكن رؤية قصر صغير متوارٍ بين الصخور في جو ملفع بالبخار والحرارة: مصح مرض القلب. الحديقة مكتظة بالنخيل من شتى الأنواع والأضواء خافتة، كل شيء رطب، معطر ودافئ وكأنه في دفيئة للنباتات. في الصمت اللانهائي، بدا البناء الأصفر الفاهي حيث عاشت والدة كريستينا السنوات الأخيرة وماتت فيه، مكتنف بالأسرار وكأنه يُغلق على كل الحزن الذي يجعل القلوب الإنسانية عليلة، وكأن ألم القلوب في اركو هو نشاط صامت، نتيجةٌ للخيبات وللحوادث غير المفهومة للحياة. قامت كريستينا بدورة حول البناء. الصمت، شذى النباتات المتوسطية الممتلئة بالشوك، البخار الدافئ الذي تنبعث منه الروائح ويلف كل شيء كالضمادات التي تلف قلوب المرضى، كل ذلك مسّني أنا أيضاً. للمرة الأولى أشعر بأن كريستينا ليست معي تماماً، وسمعت صوتاً قصيّاً، قصيّاً جداً، من بداية الأزمنة، الصوت الحزين والذكي

لوالدي. كان والدي يتكلم عنك يا كونراد - لفظ الجنرال اسم الضيف للمرة الأولى، دون غضب، دون عاطفة بنبرة حيادية ومهذبة - وقال لي بأنك لست جندياً حقيقياً، وأنك شخص مختلف. لم أفهم، وحتى الآن لا أفهم ماذا يعني أن يكون المرء مختلفاً... زمن طويل وساعات كثيرة من العزلة علمتني، فيما بعد، أن الأمر يتعلق بهذا، تماماً بهذا، دائماً، كل شيء يتعلق بهذا، العلاقة بين الرجل والمرأة، الصداقات، العلاقات الاجتماعية والدنيوية، كل شيء يتعلق بهذا، بالفروقات التي تقسم الإنسانية إلى شطرين. أفكر أحياناً بأنه يوجد مجموعتان في العالم فقط مع كل التباينات في خصوصياتهما: فروقات الطبقات الاجتماعية، الفروقات الايديولوجية، درجات القوة، كل ذلك يُختصر في تلك الخصوصية. وبالشكل ذاته حيث الأشخاص الذين لديهم فصيلة الدم ذاتها فقط يستطيعون مساعدة بعضهم في لحظات الخطر بالتبرع لأحد ينتمي لفصيلة الدم ذاتها، كذلك فإن الروح الإنسانية تستطيع فقط مساعدة روح إنسانية أخرى حين لا تكون مختلفة عنها، حين تكون وجهات نظرهم، قناعاتهم وواقعهم السري مشابهاً... هناك، في اركو، شعرت بأن الحفلة قد انتهت، وبأن كريستينا أيضاً كانت "مختلفة". تذكرت كلمات والدي الذي لم يكن يوماً مولعاً بالقراءة، لكنه تعلم معرفة الحقيقة في العزلة وفي الخبرات الحيوية: هو أيضاً عرف تلك الخصوصية، نعم، هو أيضاً وجد المرأة التي أحبها، والتي شعر إلى جانبها بالوحدة التامة، لأنهما كانا شخصين مختلفين، بمزاجين مختلفين وإيقاعهما الحيوي كان مختلفاً، لأن والدتي كذلك كانت "مختلفة"، مثلك ومثل كريستينا. في اركو أدركت شيئاً آخر. المشاعر التي ربطتني بوالدتي، بك وبكريستينا كانت هي ذاتها: الحنين ذاته،

الأمل ذاته، الإرادة العاجزة والحزينة ذاتها. لأننا دائماً نحب ونبحث عن الأشخاص المختلفين، في كل المواقف وفي كل تنوعات الحياة... هل تعلم ذلك؟ السر والهبة الأعظم من الحياة هو حين يلتقي شخصان "متشابهان". هذا يحدث نادراً، وكأن الطبيعة تمنع مثل هذا التناغم بكل قواها وخِدَعها، ربما من أجل خلق العالم وتجديد الحياة من الضروري التوتر الذي ينشأ بين الأشخاص الذين لا يكفّون البحث عن بعضهم، لكن لديهم نوايا متناقضة وإيقاعات حيوية مختلفة. أنت تعلم، مثل تناوب التيار... حيثما تنظر لا ترى سوى تبادل قوى الموجب والسالب. كم من اليأس، كم من الأمل الأعمى يختبئ وراء تلك التباينات! نعم، لقد سمعت صوت والدي في اركو وأدركت أن قدره مستمر بي، وأنني أمثل ذات الطبائع والأذواق التي كان يملكها؛ أدركت بأن والدتي وأنت وكريستينا في الضفة الأخرى وأنه رغم أنكم جميعاً لكم دوركم الخاص، الوالدة، الصديق، الزوجة الحبيبة، جميعكم مارستم الدور ذاته في حياتي. أنتم في الضفة الأخرى، نعم، في الضفة التي لا يمكنني الوصول إليها. يمكن أن يكون لديك كل شيء في الحياة، يمكنك التغلب على كل ما حولك وفي العالم، كل شيء يمكن أن تعطيك إياه الحياة ويمكنك انتزاع كل شيء، لكن لا يمكنك أبداً تغيير الأذواق، الميول، الإيقاعات الحيوية لشخص محدد، هذه الخصوصية، هذه الكيفية التي تجعلك خاصاً ومختلفاً التي تطبع الشخص الذي يهمك أمره، الشخص الذي أنت على علاقة به. هذا ما شعرت به في اركو للمرة الأولى في حياتي، بينما كريستينا تقوم بدورة حول البناء الذي توفيت فيه والدتها.

تراجع في كرسيه إلى الخلف، أسند رأسه بيده بحركة عجز

وإذعان، كمن أدرك للتو شيئاً، أدرك بأنه لايستطيع فعل شيء أبداً حيال قوانين الطبائع البشرية.

- بعدئذٍ عدنا من اركو إلى البيت وبدأنا حياتنا هنا ـ قال ـ البقية أنت تعرفها. أنت من قدّم لي كريستينا للتعارف. لم تقل لي قط، حتى ولا بكلمة واحدة، أن كريستينا تهمك. أنا فسرت ذلك اللقاء، اللقاء بينها وبيني كشيء واضح لا لبس فيه، كما لم يكن في أي لقاء آخر سابق، كانت مزيجاً من أعراق مختلفة: قليل من الألمانية، قليل من الإيطالية وما تبقى هنغاري. ربما كان فيها أيضاً بعض قطرات الدم البولونية من جهة عائلة والدها. كان لا يمكن تعريفها أو تصنيفها، وكأن أي عرق أو نوع لا يستطيع أن يحتوي كل ذلك، وكأن الطبيعة فعلت ذلك لمرة واحدة في خلق شيء لا مثيل له، كائن مستقل وحر، أحد لاعلاقة له بنوع أو أصل. كانت مثل ضارية برية: تربية صارمة مع الراهبات، الثقافة والرقة عند والدها ساهمت في طلاوة سلوكها فحسب. كريستينا كانت برية في داخلها، لا يمكن ترويضها: كل ما استطعت تقديمه لها هو الثروة، المرتبة الاجتماعية، العالم الذي كنت أقوده ليس له أية قيمة عندها في العمق؛ وهي لم تكن تريد إعطاء أدنى جزء من جهدها في الاستقلالية والحرية مقابل ذلك، إذ أن هذا كان المحتوى الحقيقي لكينونتها وسجيتها. اعتزازها بنفسها كان أيضاً مختلفاً عن الأشخاص الذين يعتزون بأنفسهم من مرتبتها وأصلها، من ثروتها، من مكانتها الاجتماعية أو أي موهبة شخصية أو خاصة. كريستينا كانت تعتز بنفسها بشكل نبيل وبري من قلبها وروحها، من هذه التركة التي كانت كالسم. كانت شخصاً فائقاً مستقلة تماماً ومتحررة في قرارة نفسها، وأنت تعلم ذلك جيداً؛ وهذه صفات نادرة في

أيامنا هذه سواء في المرأة أو الرجل. يبدو أن الأمر لا يتعلق بمسألة الأصل أو الظروف. لم تدع أحداً يسيء إليها أو يغيظها، ولم تجزع من أي تحد؛ لم تتسامح مع التضييق عليها من أي نوع كان. كانت تدرك شيئاً آخر قلة من النساء يدركنه: كانت تعي المسؤولية التي تترتب على قيمها الإنسانية التي تحملها. أنت تذكر... نعم، بالتأكيد أنت تتذكر المرة الأولى التي التقينا فيها هي وأنا: في صالة بيتها إلى جانب تلك الطاولة الكبيرة الطافحة بالنوتات الموسيقية ودفاتر والدها؛ دخلت كريستينا وغمرت ذلك الصالون المعتم بالضياء. لم تكن تشع بالشباب فحسب، كلا، كانت تشع بالشغف والاعتزاز، الوعي الأسمى ببعض المشاعر غير المشروطة. لم أحظ بمعرفة شخص آخر كان قادراً على الاستجابة هكذا بشكل تام إلى كل ما تطرحه الحياة والعالم: إلى الموسيقى، إلى نزهة صباحية في الغابة، لون وشذى زهرة ما، إلى الكلمة الحقة والحكيمة لشخص آخر. لاأحد آخر يعرف لمس قماش فائق الجودة أو حيوان مثلها، بطريقتها تلك التي تحتوي على كل شيء. لم أعرف شخصاً آخر قادراً على الفرح مثلها بالأشياء البسيطة في الحياة، أشخاص وحيوانات، كواكب وكتب، كل شيء يهمها، واهتمامها لم يكن يرتكز على الغطرسة، على الطموح بأن تصبح خبيرة، إنما بالاقتراب من كل شيء تقدمه لها الحياة بفرح غير مشروط لمخلوقة ولدت في هذا العالم للاستمتاع بكل شيء. وكأنها على اتصال حميم مع كل مخلوق، مع أي ظاهرة في الكون، هل تفهم ما أريد قوله؟ طبعاً، بالتأكيد تفهم. كانت مباشرة وعفوية، متزنة وحيادية، وكان فيها أيضاً تواضع، مثلما كانت تشعر بلا انقطاع بأن الحياة هدية ممتلئة بالنِعَمْ. ما زلت أرى وجهها أحياناً - قال بتأثر - رغم عدم وجود

بورتريهات لها في هذا البيت ولا حتى صورة فوتوغرافية، وذلك البورتريه الكبير الذي رسمه فنان نمساوي والذي كان معلقاً بين بورتريه والدي ووالدتي قد نزعوه من مكانه منذ زمن طويل. لا يوجد في هذا البيت أي بورتريه لكريستينا، كلا ـ قال بحزم، برضا تقريباً وكأنه يروي مأثرة صغيرة ـ لكن أحياناً أرى وجهها في الحلم أو عند الدخول إلى إحدى الغرف. والآن بما أننا نتكلم عنها نحن الاثنان اللذان نعرفها جيداً، أرى وجهها بوضوح مطلق، مثل قبل واحد وأربعين عاماً حين كانت في الليلة الأخيرة تجلس بيننا. لأن تلك كانت الليلة الأخيرة التي تناولنا فيها العشاء معاً، كريستينا وأنا: وهذا عليك معرفته. ليس فقط أنت تناولت معها العشاء للمرة الأخيرة، إنما أنا أيضاً. لأن كل ما حدث بيننا نحن الثلاثة في ذلك اليوم، حدث بالطريقة التي عليه أن يحدث فيها. بما أننا نحن الاثنان كنا نعرف كريستينا جيداً، لذا كان لا مناص من اتخاذ بعض القرارات المحددة: أنت ذهبت إلى المنطقة الاستوائية، وكريستينا وأنا لم نعد نوجه لبعضنا الكلام. عاشت ثماني سنوات بعدها، نعم. عشنا هنا في البيت ذاته، لكننا لم نكلم بعضنا أبداً ـ أضاف بهدوء.

نظر إلى النار.

- هكذا كنا بطباعنا ـ تابع ـ شيئاً فشيئاً أدركت جزءاً مما حدث. من جهة كانت الموسيقى. هناك عناصر حاسمة في حياة أشخاص تعود مرة تلو الأخرى، مثل الموسيقى. بين والدتي وكريستينا وأنت كانت الموسيقى مثل لغة لصيقة. على الأرجح كانت الموسيقى تقول لكم شيئاً، شيئاً لا يمكن التعبير عنه بالكلمات أو بالأفعال، وعلى الأرجح كنتم تقولون شيئاً لبعضكم بالموسيقى، وهذا الشيء الذي عبرت عنه الموسيقى بشكل مطلق بالنسبة لكم، نحن المختلفين عنكم، والدي

وأنا، لم ندركه. لذا كنا نشعر بالوحدة بينكم. الموسيقى كانت تتكلم إليك وإلى كريستينا أيضاً، وهكذا كنتما تتكلمان فيما بينكما حتى حينما نفدت كل أنواع المحادثة بيني وبين كريستينا. أكره الموسيقى ـ قال بصوت مرتفع أكثر وأجش: للمرة الأولى خلال الليلة كلها تفصح كلماته عن الانفعال ـ أكره هذه اللغة المتناغمة، غير المفهومة بالنسبة لي، التي يستخدمها بعض الأشخاص للثرثرة، لكي يقولون لبعضهم أشياء لا توصف والتي لا تخضع لأي قاعدة ولا لأي قانون: نعم، أفكر أحياناً بأن كل ما يمكن التعبير عنه من خلال الموسيقى هو غير مهذب ولاأخلاقي. يا لهم كيف تتحول وجوههم وهم يستمعون إلى الموسيقى! كريستينا وأنت لم تسعيا وراء الموسيقى. لا أتذكر بأنكما عزفتما معاً بأربعة أياد، ولم تعزف أي شيء لكريستينا على البيانو، على الأقل أثناء وجودي. يبدو أن الحياء والكياسة منعتا كريستينا من سماع الموسيقى إلى جانبك في حضوري، ولما لم يكن للموسيقى أي معنى يمكنها أن تعبر عنه بالكلمات، فعلى الأرجح لها معنى آخر أكثر خطورة، إذ أنه يمكنها جعل الأشخاص متفاهمين، ليس فقط أولئك الذين ينتمون إلى بعضهم بسبب أذواقهم الموسيقية، إنما أيضاً بسبب أصلهم وقدرهم. ألا تعتقد ذلك؟

- نعم، أعتقد ذلك ـ أجاب الضيف.

- هذا يبعث في الطمأنينة ـ قال بنبرة مؤدبة ـ والد كريستينا يعتقد ذلك أيضاً وهو كان يفهم ما تقوله الموسيقى. كان هو الشخص الوحيد الذي تكلمت معه مرة، مرة واحدة، حول كل ذلك، حول الموسيقى، حولك وحول كريستينا. كان قد أصبح عجوزاً جداً في ذلك الحين، مات بعد زمن قليل من محادثتنا. كنتُ قد عدتُ للتو من الحرب.

كريستينا كانت قد توفيت قبل عشر سنوات من ذلك. كان قد مات أو اختفى جميع الأشخاص الذين يهمونني حقيقة: والدي، أنت وكريستينا. لم يعد حياً سوى عجوزين: المرضعة نيني ووالد كريستينا، ما زالا على قيد الحياة مع تلك اللامبالاة وتلك القوة التي تميز العجزة، مع ذلك التصميم الغامض... كما نحيا نحن الآن. كان قد مات الجميع وأنا لم أعد شاباً، كنت شارفت الخمسين من عمري وكنت وحيداً مثل تلك الشجرة وسط المرج، تلك التي ظلت وحيدة حين العاصفة أودت على نصف الغابة، قبل يوم من اندلاع الحرب. هي فقط ظلت منتصبة وسط المرج قرب بيت الغابة. كان هذا قبل ربع قرن ومنذ ذلك الحين نمت غابة أخرى حولها. لكن تلك الشجرة هي من الأشجار القديمة، وذلك الشغف الذي اسمه في الطبيعة عاصفة قضت على كل ما حولها مع كل ما تنتمي إليه. كما ترى، رغم كل شيء، الشجرة ما زالت حية حتى اليوم مع قوة هائلة ولا عقلانية، لماذا؟ لأجل أي شيء؟... لا لشيء. تريد متابعة الحياة فحسب. يمكن القول أن الحياة، كل ما هو حي ليس لديه أي دافع للحياة سوى أن يتابع العيش طالما يستطيع، ويجدد نفسه دائماً بشكل مستمر. هكذا إذن بعد العودة من الحرب كان لي حديث مع والد كريستينا. ما الذي كان يعرفه حولنا نحن الثلاثة؟ كان يعرف كل شيء. وأنا رويت له كل شيء، له فقط، كل ما يستحق الحديث حوله. كنا جالسين في الصالون، في العتمة، بين أثاث قديم وأدوات موسيقية قديمة؛ الرفوف، الخزائن، كلها كانت مكتظة بالنوتات الموسيقية؛ الموسيقى العذبة، مدونة في النوتات، الموسيقى الصارّة والزاعقة مدونة في الدفاتر، جزء كبير من تاريخ الموسيقى كان موجوداً، مسجلاً في النوتات الموسيقية في تلك الصالة، حيث كل شيء

تفوح منه رائحة القِدَمْ وكأن الحياة الإنسانية التي انصرمت هناك أصبحت تفتقر إلى الفحوى. أنصت إليّ العجوز وقام بالتأمل التالي فقط: "وما الذي تريده؟ لقد بقيت على قيد الحياة" قال ذلك وكأن الأمر يتعلق بحكم، وكذلك مثل تهمة. نظر أمامه بعينيه الحسيرتين، صوب الظلال: كان قد أصبح عجوزاً جداً، تخطى الثمانين من عمره. حينئذ أدركت أن من يبقى على قيد الحياة، من ينجو من شيء ويبقى حيّاً ليس لديه الحق في رفع أي شكوى. من ينجو يكون قد فاز بحكمه، ليس لديه أي حق أو أي سبب لكي يرفع شكوى: إنه الأكثر قوة، الأكثر دهاء، الأكثر عدوانية. مثلنا نحن الاثنين - قال.

نظرا إلى بعضهما، تمحصا بعضهما.

- بعد ذلك مات هو أيضاً، والد كريستينا - تابع - لم يبق سوى المرضعة وأنت في مكان ما من العالم، وهذا البيت وهذه الغابة. وأنا الذي نجوت حتى من الحرب - كرر برضا - لم أبحث عن الموت، لم أذهب لملاقاته: هذه هي الحقيقة ولا معنى له إن قلت لك شيئاً آخر. يبدو أنه ما زال لدي شيء ما أقوم به - أضاف شارداً - كان الناس يموتون من حولي، لقد شاهدت كل مظاهر الموت، راقبت أحياناً متعجباً من الأشكال الكثيرة التي يتخذها الدمار، لأن الموت أيضاً لديه تصورات كثيرة، مثل الحياة. عشرة ملايين شخص قتلوا في الحرب، حسب التقديرات. لقد اشتعل العالم واضطرم باللهب الشديد والدخان حتى يخال المرء أحياناً أنه هناك تضطرم جميع الشكوك الشخصية، جميع المشاكل، كل الشغف، لكن لم يكن الأمر كذلك. كنت أعلم، حتى في وسط أكثر حالات البؤس الإنساني بأنه ما زال لدي شيء شخصي عليّ القيام به، ولذا لم أكن لا جباناً ولا شجاعاً، بالمعنى الأكثر ابتذالاً لهذه الكلمات، إنما حافظت على الرزانة وسط الهجمات

والمعارك، لأنني كنت أعلم أنه لن يحدث لي شيء. وذات يوم عدت من الحرب وتأهبت للانتظار. مضى الوقت وعاد العالم للاشتعال، لكني كنت أعلم أن الأمر يتعلق بالنار ذاتها والتي تحترق الآن باستعار أكبر من ذي قبل... وفي روحي ما زال يضطرم السؤال ذاته، سؤال لم يستطع إطفاءه لا الزمن الذي مضى ولا رماد الحريين. العالم يحترق الآن مرة أخرى، يموت ملايين الأشخاص وأنت وجدت الطريق وسط هذا العالم المجنون لكي تعود من الضفة الأخرى، لكي تضع نهاية للقضايا التي منذ واحد وأربعين عاماً ظلت من دون نهاية. بمثل هذه القوة هي الطبيعة الإنسانية: لايستطيع المرء العيش بطريقة أخرى، عليه أن يعثر في داخله ويحرز من الآخرين الجواب على السؤال الذي يعترف بأنه السؤال الأصيل والحقيقي في حياته. لذا عدت ولذا انتظرتك. ربما سينتهي العالم - قال بصوت خفيض مشيراً إلى ماحوله - ربما سنتطفئ أنوار العالم مثلما هي مطفأة هذه الليلة في المدينة؛ ربما تقع كارثة طبيعية أكبر حتى من الحرب، ربما نضج شيء في روح الكائنات الإنسانية، في العالم بكامله، يجادلون ويرتبون بالدم والنار كل ما يجب مناقشته وترتيبه. هناك الكثير من الإشارات التي تشير إلى ذلك. من الممكن أن يكون الأمر كذلك - قال وكأنه يؤكده - من الممكن أن يكون شكل الحياة التي عرفناها وولدنا فيها، من الممكن أن هذا البيت، هذا العشاء، نعم، حتى هذه الكلمات التي نجلي فيها هذه الليلة سؤال حياتنا، من الممكن أن كل ذلك قد أصبح شيئاً من الماضي. يوجد الكثير من التوتر في القلوب الإنسانية، الكثير من الشغف، الكثير من الرغبة في الانتقام. ننظر في قلبينا فما الذي نجده؟ عواطف، الزمن وحده استطاع التخفيف من حدتها، لكن لم يطفئها. بأي حق ننتظر شيئاً مختلفاً من العالم، من الآخرين؟ نحن الاثنين، حكيمان وعجوزان في نهاية حياتنا نرغب أيضاً بالانتقام. الانتقام ممن؟ الواحد منا من الآخر أم الاثنين من ذكرى أحد لم يعد

موجوداً؟ أية عواطف أكثر حماقة. ومع ذلك فهي حية في قلبينا. بأي حق ننتظر إذن شيئاً آخر من عالم ممتلئ بالجهل، بالرغبات والعواطف والعدوانية؛ حيث بعض الشباب يشحذون سكاكينهم ضد شباب من قوميات أخرى، حيث بعض المجهولين يسلخون آخرين مجهولين، حيث لم يعد من شيء صالح مما كان من قبل ذي أهمية، حيث تضطرم العواطف فقط ولهبها يرتفع حتى السماء؟ نعم، الانتقام. عدت من الحرب حيث كان هناك سانحة للهلاك، ولم أهلك لأنني كنت أصبو إلى الانتقام. كيف؟ ستسأل. أي انتقام؟ أرى في تعابيرك بأنك لا تفهم تعطشي هذا للانتقام. أي انتقام يمكن أن يكون بين عجوزين لم يعد ينتظرهما سوى الموت؟ الجميع ماتوا، أي معنى للانتقام إذن؟ هذا ما تسأله نظرتك. وأنا أجيبك هكذا: نعم، الانتقام ضد كل شيء وضد الجميع. هذا ما جعلني أحافظ على نفسي حية في السلم وفي الحرب خلال الواحد وأربعين عاماً المنصرمة، ولذا لم أقتل نفسي، ولذا لم يقتلوني، ولذا لم أقتل أحداً، شكراً للحياة. والآن جاء الانتقام مثلما أريد. الانتقام يمكن اختصاره في هذا: أنك جئت إلى بيتي؛ عبر عالم فيه حرب، عبر بحار ممتلئة بالألغام، جئت إلى هنا، إلى مسرح الجريمة لكي تجيبني، لكي نعرف نحن الاثنين الحقيقة. هذا هو الانتقام. والآن ستجيبني.

الكلمات الأخيرة هذه قالها بصوت خفيض وانحنى الضيف إلى الأمام لكي يسمعها جيداً.

- يمكن ذلك . قال . يمكن أن يكون معك الحق. اسألني. ربما أعرف الإجابة.

تتراقص أضواء الشموع دون قوة؛ في الحديقة، بين الأشجار تسري نسمة الفجر. الصالون أضحى معتماً تقريباً.

17

- ستجيبني على سؤالين - قال الجنرال منحنياً أيضاً إلى الأمام: يتكلم تقريباً بين الهمس والسرية - على سؤالين كنت طرحتهما منذ عقود، منذ أن عزمت على انتظارك. على سؤالين أنت فقط من يستطيع الإجابة عليهما. أرى بأنك تعتقد أني أريد سؤالك عن ذلك الصباح في رحلة الصيد، إذا ما كان لديك فعلاً نيّة في قتلي أم أن ذلك كان مجرد تصور مني، فأولاً وأخيراً لم يحدث شيء. وحتى غريزة أفضل صياد يمكنها أن تخطيء. أرى أيضاً بأنك تعتقد أن السؤال الآخر هو: هل كنت عشيقاً لكريستينا؟ هل خدعتني أنت وخدعتني هي بالمعنى الواقعي، المبتذل والبائس للكلمة؟ كلا، ياصديقي، هذان السؤالان لم يعودا يهمانني. لقد أجبتَ على هذين السؤالين، أجاب الزمن وأجابت عليهما كريستينا أيضاً على طريقتها. كل العالم أجاب على هذين السؤالين؛ أنت بهربك من المدينة في اليوم التالي لرحلة الصيد ،هارباً منا، من الجيش، خائناً الراية كما كان يُقال سابقاً، حين كان الناس ما زالوا يعتقدون بالمعنى الحقيقي للكلمات. لن أطرح عليك هذا السؤال، لأني أعلم بيقين مطلق أن نيّتك في ذلك الصباح كانت قتلي. لا أقول لك ذلك كتهمة، هي بالأحرى تبعث في الأسى. يجب أن تكون مرعبة تلك اللحظة في حياة الرجل، حين يعتريه إغراء رفع السلاح لقتل الآخر، رفع السلاح على أحد له علاقة به، على أحد تربطه به أواصر حميمة، رفع السلاح على أحد لقتله لدافع ما. لأن هذا ما حدث لك في

تلك اللحظة. لا تنكر ذلك؟ تصمت؟ لا أتبيّن وجهك بين الظلال، لكن لم يعد له معنى طلب شموع أخرى: الآن إذ جاءت اللحظة، لحظة الانتقام، فنحن نعرف بعضنا ونفهم بعضنا حتى في الظلال. فلننه الأمر إذن بأقرب ما يمكن. لم تتنابني الريبة أبداً ولا لثانية واحدة خلال العقود المنصرمة بأن نيّتك كانت قتلي ولم أكفّ أبداً عن الشفقة عليك لأجل ذلك. أعرف تماماً بما شعرت به وكأنني عشت وشعرت عنك بذلك الموقف، تلك اللحظة من الإغراء الرهيب. كانت لحظة من الهذيان، لحظة الفجر، حين تكون قوى العالم السفلي مازالت تملك القدرة في العالم وفي القلوب الإنسانية حين الليل ما زال يزفر بكل شروره. إنها لحظة طافحة بالمخاطر. أعرف ذلك جيداً. لكن كما ترى فإن كل ذلك له الآن وقع تقرير بوليسي. ما الذي تريدني أن أفعله مع هذه الحقيقة القضائية، مع بعض الدلائل التي أعرفها بقلبي وعقلي؟ ماالذي أستطيع فعله مع الأسرار الفاسدة لبيت عازب مع نتانة الزاني، مع الأسرار القديمة لمخدع من الهواء الفاسد، مع ذكريات عجوزين ميتين أو على حافة الموت؟ أي حكم مزيّف ومخجل إذا ماطلبت منك الآن حساباً، في نهاية حياتنا، حول ما يمكن معرفته كدليل محتمل لحالة زنا، لمحاولة قتل، إذا ما حاولت مداهنتك كي تعترف الآن، بينما حتى القوانين تعلن بطلان ما حدث بالتقادم أو ما كان يمكن أن يحدث؟ سيكون مخجلاً ومخزياً لك ولي ولذكرى طفولتنا وشبابنا ولصداقتنا. ربما سيبعث الراحة في نفسك إذا ما تكلمت عما يمكن الكلام عنه. لا أريد أن تشعر بالراحة ـ قال بهدوء ـ أريد الحقيقة، والحقيقة لم تعد بالنسبة لي هي الأفعال المعفرة بالغبار ولا أسرار العواطف والأخطاء لجسد امرأة

ميتة وقد تحولت إلى غبار... أية أهمية لكل هذا بالنسبة إلينا، إلى الزوج والعشيق طالما الآن لم يعد موجوداً ذاك الجسد، الآن وقد أصبحنا عجوزين، الآن ونحن نحاول إيضاح بعض القضايا لمعرفة الحقيقة، لكي نمضي بعد ذلك صوب الموت، أنا هنا، مازجاً عظامي مع عظام أسلافي، وأنت هناك، في مكان ما قصي من العالم، في ضواحي لندن أو في المنطقة الاستوائية؟ ماذا يهم في نهاية الحياة الحقيقة والكذب، الخداع، الخيانة ، محاولة القتل أو القتل ذاته، ماذا يهم أين، متى وكم من المرات خُدعتُ معك، مع أفضل صديق، مع زوجتي، الحب الوحيد والحقيقي في حياتي، أملي الوحيد والكبير، كريستينا؟ تعترف لي بالحقيقة، الحقيقة المحزنة والهشة، تعترف بكل شيء، تحكي لي كيف بدأ كل شيء، أي مزيج من الغيرة والحسد، الخوف والأسى الذي نهبكما إلى أن توصلتما إلى معانقة بعضكما، تحكي لي عما شعرت به حين كانت بين ذراعيك، تحكي لي عما كانت تشعر به كريستينا في جسدها وفي روحها في تلك السنين، مزيج من الانتقام والإثم وما الذي يهم كل ذلك؟ كل شيء في النهاية في منتهى البساطة. كل ما كان وما يمكن أن يكون. كل شيء يتحول إلى غبار ورماد، حتى الأفعال. كل ما كان يحرق قلبينا إلى درجة نعتقد فيها بأننا لا نستطيع تحمله وأننا سنموت لأجله أو نقتل أحداً؛ أنا أيضاً كابدت تلك المشاعر، أنا أيضاً عرفت لحظات الإغراء بعد أن رحلت بقليل وأصبحت وحيداً مع كريستينا؛ كل هذا يتحول بعد ذلك إلى غبار ورماد، يغدو خفيفاً كالغبار الذي يغطي دروب المقابر. سيكون من المخجل، من الغباء التكلم حول ذلك. بالإضافة إلى ذلك، أنا أعرف كل شيء مع كل

التفاصيل وبدقة تقرير بوليسي. يمكنني أن أسرد لك مجمل القضية مثلما يحدث في وزارة العدل أثناء الحكم: وماذا بعدئذ؟ ماذا أفعل بالحقيقة السافرة، بأسرار جسد لم يعد موجوداً؟ ماذا يعني الوفاء، ما الذي ننتظره من الأشخاص الذين نحب؟ أنا أصبحت عجوزاً وتفكرت كثيراً حول هذا. أليس المطالبة بالوفاء هو درجة متطرفة في عبادة الذات، في الأنانية والغرور، مثلما هو الأمر في غالبية الأشياء والرغبات عند الكائنات الإنسانية؟ حين نطالب أحداً بالوفاء فهل يا ترى مقصدنا هو سعادة الشخص الآخر؟ وإذا كان الشخص الآخر غير سعيد في العبودية الغامضة للوفاء، هل نكون نحب الشخص الذي نطالبه بها؟ وإذا كنا لا نحب هذا الشخص ولا نجعله سعيداً، هل سيكون لدينا الحق بمطالبته بالوفاء والتضحية؟ الآن في نهاية حياتي، لا أتجرأ على الجواب عن تلك الأسئلة إذا ما طرحها أحد ما عليّ، بالشكل ذاته الذي لالبس فيه منذ واحد وأربعين عاماً، حين تركتني كريستينا في ذلك البيت، بيتك الذي جاءت إليه في مناسبات كثيرة وحيث أنت جمعت كل ما يحتويه لاستقبالها، حيث الشخصان اللذان كان يربطني بهما أشد الأواصر يخدعانني ويخونانني بطريقة مخجلة ومبتذلة، بطريقة... مملة، نعم، هذا ما أسميه الآن. هكذا كان الأمر ـ قال عرضاً بنبرة حيادية، مملة تقريباً ـ كل هذا الذي يسميه الناس "خداع"، هذا التمرد المحزن والممل للأجساد تجاه مواقف وتجاه شخص ثالث سيكون عديم الشأن بشكل فظيع، محزناً تقريباً إذا ما نظرنا إليه من هذا البعد الزمني، في نهاية حياتنا؛ شيء يشبه حادث أو سوء فهم. طبعاً في ذلك الحين لم أكن أرى الأمر بهذا الشكل. كنت هناك في ذلك البيت

السري أتمحص الدلائل والبراهين على تلك الجنحة، ناظراً إلى الأثاث، إلى الصوفا التي تتحول إلى سرير... حين يكون المرء شاباً ويعرف أن زوجته تخدعه مع صديقه الوحيد، صديق أكثر حميمية من أخ، سيتصور بالطبع أن العالم ينهار من حوله. أعتقد أن الأمر كذلك، لأن الغيرة، الخديعة والغرور يمكنها أن تسبب الكثير من الضرر والألم البالغ. فيما بعد ينتهي كل شيء، ينتهي بطريقة غير مفهومة؛ ليس في ليلة وضحاها، كلا، الغضب لا يتناقص مع مضي السنين، لكنه في النهاية ينتهي مثلما تنتهي الحياة. عدت إلى البيت وذهبت إلى غرفتي وهناك مكثت منتظراً كريستينا لقتلها أو أن تقول لي الحقيقة وهكذا أسامحها. حسناً، انتظرت قليلاً. انتظرت حتى المساء وبعدئذ ذهبت إلى منزل الغابة، لأنها لم تأتِ. ربما كان ذلك صبيانياً، الآن حين أنظر إلى الوراء، الآن حيث أحاول الحكم على نفسي وعلى الآخرين، أدرك أن ذلك الغرور، ذلك الانتظار وتلك العزلة كانت صبيانية، لكن في النهاية هكذا هو الإنسان حتى وإن كان ذكياً ومجرباً فلا يستطيع فعل شيء ضد طبيعته وضد هواجسه. وأنت تعلم ذلك أيضاً. ذهبت إلى منزل الغابة الذي تعرفه جيداً، ولم أعد لرؤية كريستينا خلال ثماني سنوات. عدت لرؤيتها فقط بعد أن توفيت في الصباح الذي أرسلت فيه نيني من يقول لي بأنني أستطيع العودة إلى البيت لأنها قد توفيت. كنت أعلم بأنها مريضة وعالجها أمهر الأطباء. أسكنوهم هنا في البيت خلال شهور وفعلوا كل شيء لإنقاذها؛ قالوا: "لقد فعلنا كل ما هو ممكن، كل ما سمح لنا به التطور الطبي". محض ثرثرة. بالتأكيد فعلوا ما سمحت لهم به معارفهم الناقصة، ما سمحت لهم به وقاحتهم وغرورهم. كانوا يخبرونني عما

يجري في المنزل كل ليلة خلال تلك السنوات الثماني؛ في البداية حين كانت كريستينا ما تزال في صحة جيدة وفي النهاية أيضاً حين قررت أن تقع مريضة وتموت. إنني على قناعة أن مثل هذه الأشياء يمكن تقريرها، الآن أعلم ذلك بيقين مطلق. مع ذلك لم أستطع مساعدة كريستينا لأنها وضعت سراً بيننا، السر الوحيد الذي لايمكن المسامحة به، سر من غير الملائم كشفه قبل الوقت لأن المرء لا يعلم ما الذي يمكن أن يخفيه. هناك شيء أسوأ من الموت، أسوأ من الألم، هو حين يفقد المرء حبه الخاص. لذا كنت أخاف من هذا السر، هذا السر الذي لكريستينا، سرك وسري. هناك شيء يبعث على الألم، يجرح ويحرق إلى درجة لا يستطيع حتى الموت إطفاءه وهو حين يجرح شخص أو اثنان هذا الحب الذي من دونه لا نستطيع أن نحيا حياة كريمة. مجرد غرور، ستقول. نعم، مجرد غرور، ومع ذلك فإن هذه الكرامة هي المحتوى الأكثر عمقاً للحياة الإنسانية. لذا كنت أخاف من هذا السر. لذا نحن جميعاً قادرون على الخضوع لأي شيء، لأي تسوية، حتى لأكثر الأشياء خسة وجبناً؛ انظر حولك وسترى الحلول الوسطية ذاتها بين الكائنات الإنسانية: أحدهم رحل، ابتعد عن الشخص أو الشخصين اللذين يحب مرعوباً من سر، وآخر بقي ملتزماً الصمت وينتظر جواباً خلال زمن كأنه الأبدية. هذا ما رأيته أنا وعشته. ليس جبناً، كلا، إنه دفاع، الدفاع الأخير للغريزة الإنسانية من أجل البقاء على قيد الحياة. ذهبت إلى البيت وانتظرت حتى المساء، بعد ذلك ذهبت إلى منزل الغابة ومكثت أنتظر إشارة، كلمة، رسالة خلال ثماني سنوات. لكن كريستينا لم تأت. من منزل الغابة حتى هذا البيت ساعتان من السفر

بالعربة. مع ذلك، هاتين الساعتين، العشرون كيلو متراً هذه كانت تعني بالنسبة لي بعداً كبيراً في الزمان كما في المكان، مثلما بالنسبة لك بُعد المنطقة الاستوائية. هكذا هي طبيعتي، هكذا تمت تربيتي، هكذا حدث كل شيء. لو أن كريستينا أرسلت خبراً، أي خبر، لكنت حققت إرادتها. لو كانت ترغب بإعادتك مرة أخرى لبحثت عنك في العالم كله لإحضارك. لو كانت ترغب بقتلك، لبحثت عنك في العالم كله لأجل قتلك. لو طلبت مني الطلاق لمنحتها إياه. لكنها لم تكن تريد شيئاً. لأنها هي أيضاً كانت أحداً، على طريقتها، على طريقتها الأنثوية، وهي أيضاً جرحها اللذين أحباها: أحدهم هرب من الحب لأنه لم يرد أن يُحرق في الرابط القدري، والآخر عرف الحقيقة، انتظر وصمت. كان لدى كريستينا طبعها أيضاً، بمعنى مختلف عن الذي نفسره نحن الرجال. معها أيضاً حدثت أشياء في تلك السنين كلها، ليس فقط معك ومعي. لقد مسّنا القدر وكان علينا نحن الثلاثة أن نتواجه. لم أرها خلال ثماني سنوات. لم تحدثني خلال ثماني سنوات. منذ بضع ساعات بينما كنت أنتظرك (لكي نتكلم حول ما يجب أن نتكلم عنه، إذ أنه لم يعد لدينا الكثير من الوقت) علمت شيئاً من المرضعة: علمت بأنها أثناء احتضارها نادت عليّ أنا، وليس عليك. ولا أقول هذا بسرور، ولكن كذلك ليس باستياء، خذ ذلك بالحسبان. نادت عليّ وهذا ليس بالكثير، لكنه شيء. ذهبت لرؤيتها بعد وفاتها فقط. كانت في منتهى الجمال. لقد احتفظت بشبابها، الوحدة لم تلحق بها الضرر، المرض لم يفسد جمالها المميّز، الانسجام التام والجدّي لوجه كريستينا. مع أنه لم يعد لك علاقة بكل ذلك - قال باعتزاز - أنت

كنت هناك، في أرجاء العالم، وماتت كريستينا. وأنا عشت في العزلة، في حالة من الاستياء، وماتت كريستينا. هي أجابتنا نحن الاثنين بالطريقة التي استطاعتها: كما ترى، الأموات يجيبون جيداً، بطريقة نهائية؛ أفكر أحياناً بأن الأموات يجيبون فقط بشكل جيد، بطريقة لا لبس فيها. هذا ما حدث. أي شيء كان يمكنها أن تقوله بعد ثماني سنوات ما عدا أن تموت؟ لا أحد يستطيع قول شيء آخر. وهكذا أجابت على كل الأسئلة التي كان يمكننا أنت وأنا طرحها، إذا ما كانت تريد التكلم مع أي واحد منا. نعم، الأموات يجيدون الإجابة. مع ذلك، تصور، هي لم ترد الكلام مع أي منا نحن الاثنين. لدي إحساس أحياناً بأنها هي المخدوعة من بين الثلاثة، هي كريستينا. ليست هي التي خدعتني معك، وليس أنت الذي خدعني معها... خداع! يا لها من كلمة! ثمت كلمات كهذه، كلمات محددة نعرّف بها بعض المواقف بطريقة شريرة وميكانيكية. مع ذلك، حين يكون كل شيء قد انتهى، مثل الآن، إذ أنه بالنسبة لنا قد انتهى كل شيء أيضاً، فإننا لانصل إلى مبتغانا بكلمات كهذه. خداع، عدم الوفاء، خيانة: إنها كلمات بسيطة، كلمات فحسب، بينما الشخص الذي نعنيه قد مات، بينما الشخص الذي عليه أن يجيب عن المعنى الحقيقي لهذه الكلمات قد أجاب. ما هو ليس كلمات، إنما حقيقة صماء هو أن كريستينا قد ماتت ونحن الاثنين ما زلنا أحياء. حين أدركت ذلك كان الأوان قد فات. لم يعد من شيء آخر سوى الانتظار والانتقام، والآن إذ جاءت لحظة الانتقام والانتظار قد انتهى، أدرك متفاجئاً كم هو تافه ومبتذل كل ما يمكننا الكلام عنه، الاعتراف به أو الكذب حوله: لا يستطيع المرء

سوى تقبل الواقع. أنا تقبلت الواقع ونار الزمن المطهرة نزعت من ذكرياتي كل الغضب. أرى كريستينا مؤخراً في الأحلام من جديد وأستيقظ، أراها تجتاز الحديقة، نحيلة بقبعتها الفلورنسية بطرفها العريض، بردائها الأبيض، أراها قادمة من الدفيئة أو تهمس لحصانها. هذا المساء رأيتها بينما كنت أنتظرك وغفوت. رأيتها بين النوم واليقظة - قال خجلاً كعجوز سقيم - رأيت صوراً من أزمنة قديمة. وأدركت أيضاً بالذكاء ما كنت قد قبلت به منذ زمن طويل بالقلب: عدم وفائكما، خداعكما وخيانتكما. لقد قبلت بكل شيء. أي شيء آخر يمكنني قوله؟ يشيخ المرء شيئاً فشيئاً، تشيخ أولاً رغبته في الحياة، بالآخرين، أنت تعلم، كل شيء يصبح حقيقياً، معروفاً ومكرراً بشكل ممل وفظيع. هذا أيضاً شيخوخة. حين تعلم أن هذا الكأس ليس سوى كأس. وأن الرجل ليس سوى رجل مسكين وبائس ليس أكثر، كائن فان مهما فعل. بعد ذلك يشيخ جسدك، ليس كله دفعة واحدة، كلا، في البداية تشيخ عيناك أو فخذاك أو معدتك أو قلبك. تشيخ هكذا عضواً عضواً. فيما بعد، فجأة تبدأ الروح بالهرم، لأنه مهما كان جسدك عجوزاً وهرماً فإن روحك تستمر طافحة بالرغبات والذكريات، تبحث وتتحمس راغبة بالمتعة. حين تنتهي الرغبة بالمتعة لا يبقى سوى الذكريات والغرور، حينئذٍ، نعم يشيخ المرء بشكل حتمي ونهائي. تستيقظ ذات صباح وتفرك عينيك ولا تدري لماذا استيقظت. أنت تعرف مسبقاً ما سيحضره لك اليوم الجديد. تعرف الربيع، الشتاء، المناظر الطبيعية، الطقس، نظام الحياة. لم يعد من الممكن حدوث شيء غير متوقع. لا يفاجئك أي طارئ ولا ما هو غير مألوف ولا حتى ماهو مرعب،

لأنك تكون تعرف كل الإمكانيات. فأنت قد رأيت كل شيء وحسبته، لم تعد تنظر أكثر، لا ماهو جيد ولا ما هو سيئ... وهذه تماماً هي الشيخوخة. ما زال هناك شيء حي في قلبك، ذكرى، غاية حيوية غير محددة تماماً، ترغب بالعودة لرؤية أحد ما، ترغب أن تقول شيء ما، أن تطلع على شيء ما وأنت تعرف بأنه سيأتي يوم لا يكون فيه ثمّت أهمية بالنسبة لك معرفة الحقيقة ولا أن تستجيب للحقيقة مثلما اعتقدت خلال عقود الانتظار. يتقبل المرء العالم شيئاً فشيئاً، ثم يموت. يدرك روعة ودافع الأفعال الإنسانية. اللغة الرمزية للاوعي، لأن الأشخاص يتواصلون بالرموز، هل أدركت ذلك؟ وكأنهم يتكلمون لغة غريبة، صينية أو شيء من هذا القبيل. حينما يتكلمون عن أشياء مهمة كأنهم يتكلمون لغة يجب ترجمتها فيما بعد إلى لغة الواقع. لا يعرفون شيئاً عن أنفسهم. يتكلمون فقط عن رغباتهم ويحاولون بيأس ولاوعي الاختباء، التخفي. تغدو الحياة مثيرة تقريباً حين تكون قد تعلمت أكاذيب الآخرين، وتبدأ بالاستمتاع وأنت تراقبهم وترى بأنهم دائماً يقولون شيئاً آخر عما يفكرون، عما يريدون حقيقة. نعم، في يوم ما تتوصل إلى القبول بالحقيقة، وهذا يعني الشيخوخة والموت. لكن ذلك لم يعد يؤلم أيضاً. كريستينا خدعتني، يا لها من جملة حمقاء! وخدعتني معك بالذات، يا له من تمرد بائس! نعم، هو كذلك، لا تنظر إليّ متفاجئاً هكذا: هذا بعث في الشفقة حقاً. فيما بعد، حين علمت بأشياء كثيرة وتفهمتها وتقبلتها جميعاً (لأن الزمن أحضر إلى جزيرة عزلتي بعض البقايا، بعض الإشارات المعبرة عن ذلك الغرق) بدأت أشعر بالرحمة حينما أنظر إلى الماضي، ولرؤيتكما أنتما الاثنان، متمردان

بائسان، زوجتي وصديقي، شخصان تمردا ضدي، مرعوبان مع تأنيب الضمير وقد أضناهما الحب، عززا اتفاقاً على الحياة أو الموت ضدي. يا للمسكينين التعيسين ! فكرت. فكرت بذلك مرات عديدة. كنت أتصور تفاصيل لقاءاتكما في بيتك في الضواحي، في تلك المدينة الصغيرة حيث أن موعداً سرياً سيكون مستحيلاً؛ وتصورتكما مغلقين على نفسيكما وكأنكما في مركب؛ تصورت لقاءاتكما في العلن وأنتما تتألمان من حب ليس فيه لحظة من السكينة، حب مخفور دائماً من الخدم والوصفاء وكم كانوا يحيطون بكما؛ مناوراتكما الوجلة للاختباء مني، أرباع الساعات المقتنصة بذريعة ركوب الخيل، الذهاب إلى درس الموسيقى أو لعب التنس، نزهاتكما في الغابة حيث حراسي يخفرون الغابة من الصيادين غير الشرعيين، تصورت الضغينة التي كانت تنبض في قلبيكما حين تفكران بي، حين في كل خطوة، في كل لحظة تتعثران بسلطتي، سلطتي كزوج، كإقطاعي، كسيد كبير، بسلطتي الاجتماعية والاقتصادية، بجيش الخدم الذين يعملون عندي، بسلطتي التي لا ترحم، المطلقة تقريباً. المحدودية التي أجبرتكما على معرفة ما هو أبعد من أي شعور بالحب أو الضغينة، بأنكما من دوني لا تستطيعان العيش ولا الموت بشكل تام. كنتما عاشقين بائسين، استطعتما خداعي، لكن لم تستطيعا تجنبي، مهما كنتما مختلفين أنتما الاثنين فقد كنا نحن الثلاثة متحدين بشكل محتوم، مثل البنية الفيومترية للكريستال. ولم تسعفك يداك في الصباح الذي أردت قتلي فيه، لأنك لم تعد تستطيع تحمل كل ذلك الجهد، كل لعبة التخفي تلك، كل ذلك البؤس. ماالذي تستطيع فعله؟ أخذ كريستينا؟ عليك

التخلي عن موقعك، كنت فقيراً وكذلك كريستينا أيضاً، لا تستطيعان القبول بشيء مني، لا تستطيع الهرب معها ولا العيش معها كذلك، لا تستطيع الزواج بها، أن تحتفظ بها كعشيقة يعني خطورة الموت، بل أكثر: يجب أن تضع نصب عينيك أنه في أي لحظة يمكن أن تُكتشف وترى نفسك مجبراً على تقديم حساب لي عن الخديعة. تخشى تقديم حساب لي، لي أنا بالذات، أنا صديقك وأخوك. هذه الظروف التي تنطوي على الخطر لا تستطيع تحملها خلال وقت طويل. هكذا، ذات يوم، حين أصبحت اللحظة ناضجة وقد مَثلت أمامنا بشكل ملموس رفعت السلاح. وفيما بعد شعرت بالرأفة لأجل ذلك في أكثر من مناسبة. يجب أن تكون مهمة غير مريحة وشاقة قتل أحد لنا معه أواصر حميمة ـ قال عرضاً ـ لم تكن قوياً كفاية لإتمام هذه المهمة. لا تعود تستطيع فعل شيء إذا ما تركت اللحظة تمضي، لأن هذا موجود أيضاً: اللحظة. الزمن يجلب ويأخذ الأشياء بشكل اعتباطي وليس فقط نحن الذين نضع أفعالنا وظروفها في إطار الزمن. يحدث أحياناً أن اللحظة تجلب الإمكانية وهذه الإمكانية لها لحظتها الدقيقة، وإذا مضت اللحظة عندها لاتستطيع فعل شيء لأي شيء انهارت يداك مع السلاح وفي الصباح التالي شرعت بالرحيل إلى المنطقة الاستوائية.

نظر بانتباه إلى رؤوس أصابعه وإلى أظافره.

- مع ذلك نحن بقينا هنا ـ قال بينما يتابع معاينة نفسه وكأن ذلك هو الأكثر أهمية ـ كريستينا وأنا بقينا. بقينا هنا، وكل شيء تكشّف بيننا بطريقة منظمة وغير مفهومة، مثل انتقال رسالة بين شخصين عبر موجات، حتى من دون أن يكون بيننا أي واش للأسرار، أي وسيط.

تكشّف كل شيء، لأنك أنت رحلت، ولأننا نحن بقينا هنا، أحياء، أنا أيضاً بقيت حياً لأنك أضعت اللحظة أو أن اللحظة أضاعتك، لا فرق، وكريستينا لأنها لم تستطع فعل شيء آخر في تلك الحالة، كان عليها الانتظار، ربما أرادت فقط أن تتحقق من أننا نحن الاثنين سنحتفظ بالصمت بدقة، أنت وأنا، الرجلان اللذان لها علاقة معهما وإذا ما كانا قد تنحيا عن طريقها؛ انتظرت لتعرف وتدرك المعنى الحقيقي لذلك الصمت. وبعدئذٍ تموت. لكن أنا بقيت هنا وعرفت كل شيء، مع أنه هناك شيء لا أعرفه. لذا عليّ أن أحيا، لذا عليّ انتظار الجواب. والآن جاءت اللحظة لمعرفة الجواب على سؤالي. أجبني من فضلك: هل كانت كريستينا تعلم بأنك ذهبت لقتلي في ذلك الصباح في رحلة الصيد؟

سأل بموضوعية ورزانة، لكن باهتمام بالغ وتوتر بالغ في الصوت، مثل طفل حين يطلب من الكبار شرحاً حول أسرار عالم النجوم الذي يتعذر لمسه.

18

لم يرتبك الضيف إثر سماعه السؤال. مكث جالساً ورأسه مستند بين يديه، وكوعاه على ذراعي الأريكة. تنهد بعمق وانحنى إلى الأمام، مرر يده على جبهته واستعد للإجابة، لكن الجنرال قاطعه.

- آسف - قال - ها أنت ترى بأنني قد سألتك - تابع وكأنه يعتذر - كان عليّ أن أسألك، وبما أنني فعلت فلدي إحساس بأني فعلت ذلك بشكل سيئ، لقد خلقت عندك حالة غير مريحة لأنك تريد قول الحقيقة وأنا لم أصغ السؤال بشكل دقيق. إن لسؤالي وقع الاتهام. لا أنكر بأن الارتياب راودني في العقود الماضية بأن تلك اللحظة في الغابة خلال رحلة الصيد لم تكن مجرد لحظة طارئة بسبب فكرة مفاجئة، مجرد فرصة، لحظة موحاة من العالم السفلي: لقد عذبتني الريبة بأن تلك اللحظة سبقتها لحظات أخرى مفعمة بالتفكير وفي وضح النهار، لأن كريستينا حين علمت بأنك هربت، قالت: "لقد كان جباناً"، هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته، كان آخر ما سمعته من فمها، حكمها الشفوي الأخير عليك. وأنا بقيت وحيداً مع تلك الكلمات. جبان، لأي شيء؟ سألت نفسي فيما بعد بكثير. جبان، بأي معنى؟ هل بما يتعلق بالعيش؟ بما يتعلق بالعيش سوية نحن الثلاثة، أو بأن تعيشا أنتما الاثنان معاً من دوني؟ جبان بشأن الموت؟ جبان لأنك لم تتجرأ ولم ترد العيش والموت مع كريستينا؟ خطرت لي كل هذه الأسئلة. أم أنك جبان بشأن أمر آخر، ليس بشأن العيش والموت، ليس بشأن الهرب ولا الخيانة، ليس بشأن انتزاع كريستينا مني ولا التخلي عنها، إنما جبان ببساطة

بشأن ارتكاب فعل بسيط يستوجب العقاب من وجهة نظر القانون، شيء خططتما له أنتما الاثنان، زوجتي وصديقي الحميم. جبان لأنك لم تحقق تلك الخطة؟ هذا كل ما أردت معرفته في الحياة، هذا هو سؤالي. مع ذلك فأنا لم أصفه جيداً منذ لحظة، لذا قاطعتك حين رأيتك تستعد للإجابة. لأن هذا الجواب ليس له أدنى أهمية لا للإنسانية ولا للكون، لكنه مهم جداً بالنسبة لي، الشخص الوحيد في العالم الذي يريد أن يعرف (الآن بما أن المرأة التي اتهمتك بالجبن أصبحت غباراً ورماداً) يريد أن يعرف في أي شيء كنت جباناً. لأن الجواب على هذا السؤال يضع نهاية لكل تأملاتي الارتيابية، وسأعرف أخيراً الحقيقة. إنني أعيش بين الكل واللاشيء منذ واحد وأربعين عاماً وما من أي شخص آخر يستطيع مساعدتي سواك. ولا يطيب لي أن أموت هكذا. كان من الأفضل، من الأكثر جدارة لرجل مثلك لو لم تكن جباناً في تلك اللحظة منذ واحد وأربعين عاماً مثلما تأكدت كريستينا؛ كان أكثر إنسانية لو أن رصاصة قضت على ما لم يستطع الزمن القضاء عليه: الشك في معرفة إذا كنتما قد حبكتما خطة ضدي، لقتلي، وإذا أنت في النهاية أصبحت جباناً جداً في تنفيذها. هذا هو ما أريد معرفته. كل ما عدا ذلك هو مجرد كلمات، أكاذيب وتخيلات: خيانة، حب، مؤامرة، صداقة كلها تفتقر للأهمية مقارنة بهذا السؤال. كل ما عدا ذلك يتلاشى تحت كثافة ضوء هذا السؤال، يصبح شاحباً كالأموات أو مثل بورتريهات مرسومة حين تلفها ظلال الزمن. لم يعد يهمني ولا أريد أن أعرف أي شيء حول الطبيعة الحقيقية لعلاقتكما، لا أريد أن أعرف التفاصيل، لا أريد أن أعرف الـ"لماذا" ولا الـ"كيف". بين شخصين، رجل وامرأة، فإن الأسئلة المتعلقة بال"لماذا" وبال "كيف" هي دائماً متماثلة

بشكل بائس. هي معادلات على قدر كبير من البساطة. كل شيء يحدث لأنه هكذا عليه أن يحدث، بالطريقة التي يستطيع الحدوث فيها، هذه هي الحقيقة. لا يستحق الأمر تقصي التفاصيل بينما انتهى كل شيء. لكن، نعم يستحق التقصي في ما هو جوهري، ما هو حقيقي، لأنه إذا كان الأمر غير ذلك فلأي شيء عشت؟ لأي شيء تحملت الواحد والأربعين عاماً تلك؟ لأي شيء كنت أنتظرك؟ لأنني لم أكن أنتظرك مثلما ينتظر الأخ أخاه غير الوفي، مثلما ينتظر الصديق صديقه الهارب، كلا؛ انتظرتك مثل القاضي والضحية متحدين في شخص واحد وهما ينتظران المتهم. والآن طالما لدي المتهم أمامي، أسأله وهو يستعد للجواب، لكن... هل صغت السؤال جيداً يا ترى؟ هل قلت كل شيء عليه أن يعرفه هو، المجرم والمتهم إذا ما أراد الإجابة قائلاً الحقيقة يا ترى؟ سترى أن كريستينا أجابت وليس بموتها فحسب. ذات يوم، بعد بضع سنين من وفاتها وجدت دفتر اليوميات ذاك المغلف بالمخمل الأصفر الذي بحثت عنه سدى في درج مكتبها في الليلة التالية لرحلة الصيد، ليلة جديرة بالذكرى بالنسبة لي. في تلك الليلة لم أجده، أنت رحلت في اليوم التالي وأنا ما عدت للتكلم مع كريستينا. فيما بعد ماتت كريستينا وأنت كنت تعيش في مكان قصي وأنا عشت هنا في منزل الغابة وعدت إلى البيت بعد وفاة كريستينا، لأنني أردت العيش والموت في البيت الذي ولدت فيه، حيث أسلافي ولدوا وعاشوا وماتوا، كل هذا هو هكذا لأن الأشياء تستجيب لنظام غريب خارج نطاق إرادتنا. في الوقت ذاته فإن دفتر اليوميات المغلف بالمخمل الأصفر عاش أيضاً حياته الخاصة الغامضة إلى جانبنا أو فوقنا، ذلك الدفتر المميز، " كتاب الصدق "، دفتر الاعترافات ذاك، اعترافات غير مشروطة حول

الحب، الشكوك، مخاوف كريستينا، حول الكائن الخفي الكامن في داخلها. هذا الدفتر الذي عاش حياته الخاصة وجدته فيما بعد، بعد ذلك بكثير، في مقتنيات كريستينا، في صندوق حيث كانت تحتفظ ببورتريه لوالدتها مرسوم على صفيحة من العاج، خاتم والدها، بتيلة أوركيديا جافة كنت أهديتها إياها، والدفتر الأصفر مربوط بشريط أزرق. كان الشمع فوق العقدة مختوماً بالخاتم. ها هو ذا الدفتر. قال الجنرال، أخرجه من الجيب وقدمه إلى الضيف. هذا هو ما بقي من كريستينا. أنا لم أفضه لأنني لم أجد أي تفويض مدوّن: هي لم تترك أي كتاب تعليمات إلى جانب هذه الأشياء من ورثتها؛ ولم أستطع التقصي حتى فيما إذا كان هذا الدفتر، هذه الرسالة، هذا الاعتراف من الماوراء كان موجهاً إليّ أمْ إليك. يحتوي هذا الدفتر على الأرجح على الحقيقة، إذ أن كريستينا لم تكذب قط. أضاف بجدية واحترام.

مع ذلك لم يتناول صديقه الدفتر.

استمر في جلوسه ساكناً بلا حراك ورأسه مستند إلى يديه ناظراً إلى الدفتر الصغير المعقود بالشريط الأزرق مع الختم المختوم بالشمع الأزرق كذلك. لم يتحرك، حتى أنه لم يرمش.

- هل تريد أن نقرأ رسالة كريستينا سوية؟ - سأل الجنرال.

- كلا - أجاب كونراد.

- لا تريد - سأل الجنرال ببرود وشموخ، متكلماً كشخص أعلى مرتبة منه - أم أنك لا تجرؤ؟

حدقا ببعضهما لدقائق طويلة من فوق الدفتر الذي قدمه الجنرال لكونراد دون أن ترتعش يداه.

- على هذا السؤال - قال الضيف أخيراً - لن أجيب.

- أفهم - قال الجنرال. كان لصوته وقع الرضا بشكل خاص.

بحركة بطيئة رمى بالدفتر إلى الجمر. بدأ الجمر يتقد آخذاً ضحيته، ملتهماً مادة الدفتر ولهب صغير ارتفع بين الرماد الداكن. نظر كلاهما دون حراك كيف بدأ اللهب يتقد، كيف أحيت النار من جديد، كيف تتراقص بفرح حول قنيصتها غير المتوقعة، كيف تتنفس وكيف تتألق؛ ارتفع اللهب أكثر فأكثر، الشمع المختوم ذاب والمخمل الأصفر اتقد مع دخان لاذع وكأن يداً لامرئية أعادت الصفحات التي بلون العاج وظهر فجأة خط كريستينا بحروفها الطويلة والناعمة المكتوبة بيد لم تعد موجودة؛ الحروف، الورق، الدفتر بكامله احترق. تحول إلى غبار ورماد مثل اليد التي كتبت تلك الصفحات. لم يبق فوق الجمر سوى الرماد الأسود الحريري الشبيه بنسيج الحداد.

تأملا الرماد بانتباه دون التفوه بكلمة.

- الآن ـ قال الجنرال ـ يمكنك الإجابة على سؤالي. لم يعد يوجد شاهد يستطيع نقضك. هل كانت كريستينا تعلم بأنك ستقتلني في ذلك الصباح في الغابة؟ هل ستجيب؟

- الآن لم أعد أريد الإجابة كذلك على هذا السؤال ـ قال كونراد.

- حسناً ـ قال الجنرال بصوت مطفأ، بلا مبالاة تقريباً.

19

لقد أصبح الصالون بارداً من حوله. لم يبدأ بزوغ الصباح بعد؛ شعرا بالهواء المنعش للفجر حاملاً معه أريج الصعتر نافذاً من النوافذ نصف المفتوحة. فرك الجنرال يديه إذ شعر بالبرد.

الآن، في ظليل نصف الساعة هذه التي تسبق الفجر، بدا كلاهما عجوزين جداً، مائلين للصفرة وعظميين كهيكل عظمي.

حرك الضيف يده فجأة بطريقة ميكانيكية ونظر إلى ساعة اليد بعينين حسيرتين.

- أعتقد ـ قال بصوت خفيض جداً ـ بأننا أوضحنا كل شيء. لقد حانت ساعة الرحيل.

- إذا كنت تريد الذهاب ـ قال الجنرال بتهذيب شديد ـ فإن العربة بانتظارك.

نهضا معاً وبحركة انعكاسية اقتربا من المدفأة، انحنيا ومدا أياديهما العظمية والباردة صوب الجمر المترمد. أدركا الآن فحسب بأن البرد ينتابهما وبأنهما يرتعدان؛ أصبح الليل بارداً فجأة والعاصفة التي أطفأت الأضواء في محطة توليد الكهرباء المركزية في المدينة عبرت فوق المنزل.

- هل ستعود إلى لندن ـ قال الجنرال وكأنه يتكلم مع نفسه.

- نعم ـ أجاب الضيف.

- هل ستعيش هناك؟

- أعيش وأموت ـ أجاب كونراد.

- واضح ـ قال الجنرال ـ بالطبع. ألا تريد البقاء يوماً آخر؟ أن ترى شيئاً؟ أن تلتقي مع أحد ما؟ أنت لم تر القبر ولم تر نيني كذلك ـ قال بمخدومية.

كان لصوته وقع الارتباك وكأنه يبحث عن الكلمات الدقيقة للوداع دون أن يجدها. الضيف هادئ وأجاب بمخدومية كذلك.

- كلا ـ قال ـ لا أريد أن أرى شيئاً أو أحداً. بلّغ نيني تحياتي.

- شكراً ـ أجاب الجنرال. اقتربا من الباب.

وضع الجنرال يده على مقبض الباب. مكثا هكذا، الواحد قبالة الآخر، في وضعية المؤانسة ومنحنيين قليلاً، جاهزين للوداع. الاثنان ينظران حولهما إلى الصالون حيث ـ على الأقل هذا مايعتقدانه الآن ـ لن يعودا لدخوله أبداً. نظر الجنرال مرة أخرى حوله بعينين حسيرتين رامشاً وكأنه يبحث عن شيء.

- الشموع ـ قال مندهشاً عند رؤية بقايا الشموع المدخنة في الشمعدانات الموضوعة على طرف المدفأة ـ انظر إلى الشموع لقد تلاشت.

- سؤالان ـ قال كونراد فجأة بصوت مطفأ ـ قلت سؤالين. ما هو السؤال الآخر.

- الآخر ـ كرر الجنرال. انحنى كل منهما صوب الآخر مثل عجوزين متواطئين يخافان من ظلال الليل ومن أن يكون للجدران آذان ـ السؤال الآخر؟ ـ كرر هامساً إذا لم تجب على الأول... انظر ـ قال بصوت خفيض جداً ـ والد كريستينا اتهمني بأنني نجوت وبقيت على قيد الحياة. كان يقصد بأنني عشت بينما مات الجميع. لأن المرء لا يجيب بموته فقط، مع أن ذلك هو جواب جيد، إنما أيضاً من الممكن الإجابة بأنه ظل على قيد الحياة، بينما مات الآخرون. نحن بقينا على قيد الحياة

بينما ماتت امرأة. أنت بذهابك بعيداً وأنا ببقائي هنا. هي ماتت ونحن عشنا بجبن أو بعماء، باستياء أو بذكاء: الحقيقة هي أننا بقينا على قيد الحياة. ألا تعتقد بأنه كان لدينا دوافعنا؟ ألا تعتقد أننا أولاً وأخيراً ندين لها بشيء، شيء من المسؤولية تتعدى حدود القبر، لها هي التي كانت أكثر إنسانية منا لأنها ماتت وقد أجابت علينا نحن الاثنين بينما نحن بقينا هنا، في الحياة؟ وحول ذلك لا يجب الدوران أكثر. هكذا هي الوقائع، من يبقى على قيد الحياة بعد الآخر هو الخائن. نحن شعرنا بأنه علينا أن نحيا، وحول هذا لا يمكن اللف والدوران كذلك، لأنها هي التي ماتت. ماتت لأنك رحلت، ماتت لأني بقيت ولم أقترب منها. ماتت لأننا نحن الاثنين، الرجلين اللذين تنتمي إليهما، كنا أكثر خسة، أكثر اعتزازاً وجبناً، أكثر صخباً وصمتاً من أن تستطيع امرأة تحمله، لأننا هربنا منها، لأننا خناها، لأننا بقينا على قيد الحياة بعدها. إنها الحقيقة البحتة. وعليك أن تعلم ذلك حينما تكون هناك، وحيداً في لندن، حين ينتهي كل شيء وتأتي ساعتك الأخيرة. وأنا أيضاً عليّ معرفة ذلك، هنا في هذا البيت، وقد أصبحت أعرف ذلك. البقاء على قيد الحياة بعد أحد أحبه إلى درجة ارتكاب جريمة لأجله، البقاء على قيد الحياة بعد أحد تركناه يقتل من أجل الحب هو إحدى الجرائم الغامضة والتي لا توصف في الحياة. وقوانين العقوبات لا تعترف بجرم كهذا. لكن نحن الاثنين نعم نفعل ذلك. قال بصوت خفيض جداً وبجفاف. نعرف كذلك رغم ذكائنا الجم، من الاستياء، من جبننا وغرورنا بأننا لم نكن قادرين على صون ما يخصنا، إذ أنها ماتت ونحن ما زلنا أحياء مع أننا كنا نحن الثلاثة متحدين في حياتنا وحتى مماتنا. من الصعوبة بمكان إدراك ذلك، وإذا ماأدركته فإنه سيبعث فيك على القلق أكثر.

ما الذي أردته ببقائك على قيد الحياة وما الذي كسبته من ذلك؟ هل حررك ذلك من مواقف مؤلمة؟ ماذا تهم تلك المواقف حين يتعلق الأمر بحقيقة الحياة، أن ثمت امرأة في هذا العالم تربطك بها بعض الأواصر وأن هذه المرأة هي زوجة الصديق المتحد معه كذلك؟ ما الذي يهم بما يفكر به الناس حول كل ذلك؟ لا شيء. أولاً وأخيراً العالم لايهم في شيء. ما يهم هو ما يبقى في قلوبنا فقط.

- ما الذي يبقى في قلوبنا؟ سأل الضيف.

- السؤال الآخر. أجاب الجنرال دون أن يترك مقبض الباب. والسؤال الآخر يقتصر على معرفة ما الذي كسبناه نحن من كل ذكائنا، من كل غرورنا وتفوقنا. السؤال الآخر هو إذا كان هذا الانجذاب المؤلم نحو امرأة ماتت يشكل المحتوى الحقيقي لحياتنا. أعلم بأنه سؤال صعب. أنا لا أعرف الإجابة عليه. عايشت كل شيء ورأيت كل شيء، لكن لا أعرف جواباً على هذا السؤال. رأيت الحرب والسلم، رأيت البؤس والعظمة، رأيتك جباناً ورأيت نفسي مغروراً، رأيت المواجهة والتوافق، لكن في العمق ربما المعنى الأخير لحياتنا هو هذا: الآصرة التي أبقت على وحدتنا مع أحد، الآصرة أو الشغف، سمه ما شئت. هل هذا هو السؤال؟ نعم، هذا هو. كم أرغب بأن تقول لي. تابع بصوت خفيض كما لو أن أحداً خلفه يستمع إلى كلماته. بما تفكر به حول ذلك. هل تعتقد أيضاً بأن معنى الحياة ليس شيئاً آخر سوى الشغف الذي غمر يوماً ما قلوبنا، أرواحنا وأجسادنا ثم بعد ذلك اضطرم إلى الأبد، حتى الموت مهما حدث؟ وهل إذا كنا عشنا هذا الشغف لا نكون قد عشنا الحياة سدى؟ وهل هو عميق هكذا، مؤثر هكذا، عظيم هكذا ولاإنساني هكذا هو الشغف؟ وهل هو ربما لا يتركز في شخص محدد،

إنما في الرغبة ذاتها؟ هكذا هو السؤال. أم أنه من الممكن أن يتركز في شخص محدد، في الشخص ذاته دائماً، منذ الأزل وإلى الأبد، في الشخص الغامض ذاته الذي يمكن أن يكون جيداً أو سيئاً، لكن ليس بسبب ذلك، وليس بسبب أفعاله ولا بنمط وطريقة حياته يؤثر في كثافة وقوة الشغف الذي يربطنا بتلك المرأة. أجبني إذا كنت تعرف الجواب. قال رافعاً صوته، مطالباً بالجواب تقريباً.

- لماذا تسألني. قال الآخر بهدوء. أنت تعلم أن الأمر هو كذلك.

أمعنا النظر ببعضهما.

تنفس الجنرال بصعوبة. فتح الباب. الأضواء والظلال تتراقص على الدرج. هبطا الدرج دون التفوه بكلمة، خرج الخدم لملاقاته مع الشموع ومع معطف وقبعة الضيف. أمام الباب ذي المصراعين يتناهى سرير العربة فوق الحصى الأبيض. ودّعا بعضهما دون قول شيء، إنما بالمصافحة وبانحناءة احترام عميق.

20

عاد الجنرال إلى غرفته. في نهاية الممر كانت المرضعة تنتظره.

- هل أصبحت أكثر هدوءاً؟ ـ سألته.

- نعم ـ أجاب الجنرال.

مشيا سوية صوب غرفة النوم. مشت المرضعة بخفة وبخطوات قصيرة وكأنها استيقظت للتو كي تبدأ بأعمال الفجر. مشى الجنرال ببطء مستنداً إلى عصاه. تقدما في الممر المكتظ بالبورتريهات. الفراغ الذي يشير إلى مكان بورتريه كريستينا جعل الجنرال يتوقف.

- البورتريه ـ قال ـ أصبح بإمكانك وضعه في مكانه من جديد.

- نعم ـ قالت المرضعة.

- ليس للأمر أي أهمية ـ أجاب الجنرال.

- أعلم.

- تصبحين على خير يا نيني.

- تصبح على خير.

وقفت المرضعة على رؤوس أصابعها وبيدها الصغيرة، العظمية وجلدها المائل للصفرة رسمت على جبهة العجوز إشارة الصليب. قبّلا بعضهما. إنها قبلة غريبة، قصيرة ومميزة: إذا ما لاحظها أحد ما سيبتسم بالتأكيد، لكن مثل أي قبلة إنسانية هي أيضاً جواب ـ على طريقتها المشوهة والرقيقة ـ على سؤال لا يمكن صياغته بالكلمات.

شاندور ماراي

ولد شاندور ماراي عام 1900 في مدينة كاسا (Kassa)، مدينة هنغارية صغيرة تنتمي اليوم إلى سلوفاكيا. قضى مرحلة من المنفى الاختياري في ألمانيا وفرنسا خلال حكم "هورتي" في العشرينات من القرن العشرين إلى أن غادر بلاده نهائياً عام 1948 حيث هاجر إلى الولايات المتحدة.

حظر كتبه في هنغاريا جعله يقع في النسيان، بينما كان يعتبر في ذلك الحين من أهم كتاب الأدب في وسط أوروبا. هكذا كان يجب الانتظار عدة عقود من الزمن لكي يُكتشف هذا الكاتب المذهل في بلده وفي العالم قاطبة. انتحر شاندور ماراي عام 1989 في سان دييغو - كاليفورنيا قبل أشهر قليلة من سقوط جدار برلين.

صدر للمترجم

في الشعر:

- مطر القلب ـ دار ورد ـ دمشق 2001.
- صخب الكلمات ـ شعر بالإسبانية ـ فنزويلا 1995.
- الظل والظهيرة ـ شعر بالإسبانية ـ فنزويلا 2007.

في الترجمة عن الألمانية:

- تويوتاما تسونو: آه يا نفحة الأبدية ـ دار الحصاد ـ دمشق 1993.
- أمثال من اليابان، إصدار خاص بالعربية واليابانية 2002.
- أغاني الغجر، دار التكوين ـ دمشق 2006.

عن الإسبانية:

- طوارق ـ ألبرتو باشكث فيغيروا ـ رواية ـ دار ورد ـ دمشق 2004
- عيون الطوارق ـ ألبرتو باشكث فيغيروا ـ رواية ـ دار ورد ـ دمشق 2006
- أبنوس ـ ألبرتو باشكث فيغيروا ـ رواية ـ دار ورد ـ دمشق2007
- من أجل ألف مليون دولار ـ ألبرتو باشكث فيغيروا ـ رواية ـ دار ورد ـ دمشق/ 2009
- بهائم السطح ـ ألبرتو هيرناندث ـ شعر بالإسبانية والعربية ـ دار المرساة ـ اللاذقية/ 2004
- وليمة الفعل أحب ـ رودولفو رودريغيز ـ شعر ـ دار التكوين ـ دمشق/ 2008.

- ارتقاء النيران والأسباع - مغالي سلازار سنابريا - شعر - دار التكوين، دمشق/2009.
- موهبة المهن - رودولفو رودريغيز - شعر - دار التكوين - دمشق/2009.
- أوراق النهر - فيديل فلوريس - شعر - دار التكوين - دمشق/2009.
- اللقاء الأخير - شاندور ماراي - رواية - دار التكوين - دمشق/2009.